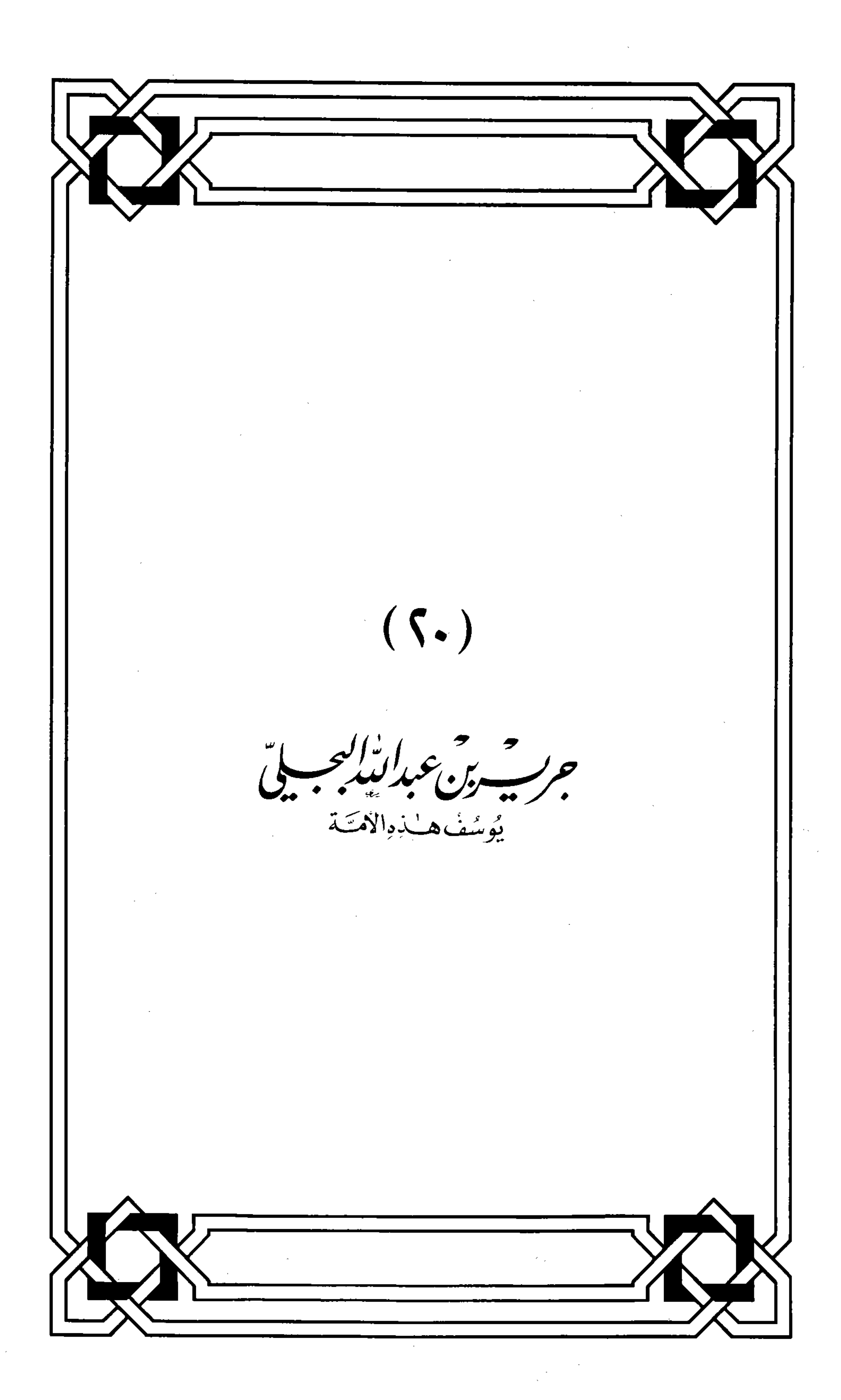


(٢٠)

جرير بن عبد الله البجلي

يوسف هذه الأمة

بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثنا الفتى صادق أمين قال :

قال لي أبي :

ـ سوف نسهر اليوم عند الحاج محمود .

فقلت في لهفة :

ـ خذني معك يا أبي .

فابتسم أبي ابتسامة الرِّضى التي أعرفها في وجهه وقال :

ـ لو صبرتَ حتى أكمل كلامي ، لرأيتني أدعوك لتسهر معي .

أحسستُ بخجل شديد لتسرُّعي ومقاطعتي أبي ، ثم قلت معتذراً ومسوِّغاً مقاطعتي إياه :

ـ لا تؤاخذني يا أبي ، فلطالما حدّثتَنا عن مجالس الحاج محمود ، الحافلة بالعلم والذكر ، وخاصّة معرفته لتاريخنا العربيّ الإسلامي ، ولقادة المسلمين العظام .

ربَّت والدي على كتفي ، وأشرق وجهه بضياء الرّضى ، ورضاه عنّي لا أعدل به شيئاً في حياتي ، ثمّ قال :

ـ هيّا جهِّزْ نفسَك ، ولا تنسَ المسجِّل ، وحضِّرْ ما تشاءُ من الأسئلة ، لتستفيدَ من السادة العلماء الذين سيسهرون عند الحاج محمود .

خرجتُ إلى غرفتي بسرعة ، وهيَّأت نفسي ، وأخذت قلمي ودفتري

والمسجِّل، ثم عدت إلى أبي، فهبَّ واقفاً، ثم امتطينا سيارتنا إلى بيت الحاج.

كان عدد من السادة العلماء قد سبقونا إلى السّهرة، وشربوا القهوة العربية، والحبّ والودّ والسرور في عيونهم وعلى ألسنتهم.

نظروا إليّ في حبّ، واستقبلوني بترحاب، وخاصة الحاج محموداً صاحب البيت الذي رحَّب بي بقوله:

ـ أهلاً بالأستاذ صادق الذي سمعتُ عن جِدّه واجتهاده في مطالعة سِيَرِ رجال هذه الأمّة، وتاريخ أبطالها الميامين.

شعرت بحياء مشوبٍ بالسعادة، وأنا أسمع إطراء العالم الجليل الحاج محمود، ثمّ قلت في شبه تلعثم ما لبث أن زال:

ـ أنا تلميذك الصّغير يا عمي الجليل، قرأتُ كتبك، وأفدتُ من علمك الغزير، وجئت اليوم، لأملأ عيني وعقلي وقلبي منك يا عمّي الغالي.

سألني أبي عمّا إذا كنتُ حضّرت أسئلة معينة لأستفيد من هذه السّهرة العامرة بالعلماء الأفاضل، فاعتذرتُ عن تقصيري في هذا الأمر.

واتجهت الأنظار إلى الحاج محمود العالم المؤرخ، فابتسم وقال:

ـ لا عليك يا صادق، ولسوف أختار لك موضوعاً يعجبك.

فأسرعتُ أقول:

ـ عن شخصية مجاهدة يا عمّي أرجوك.

فقال الحاج محمود الذي بدا كأنه التقط جوهرة ثمينة في ثنايا ذاكرته التي استوعبت ما يقارب الثمانين من السنين الحوافل بالحلو والمرّ، وربما كان المرُّ أضعاف الحلو من التجارب. قال الحاج:

سأحدّثك يا صادق، والكلام للجميع، عن شخصية فذّة، كان يدعو الخليفة الراشد: عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ صاحبها بأنه يوسف هذه الأمّة. فهل عرفتَه أو سمعتَ به يا صادق؟

نفيتُ معرفتي به، وسماعي عنه، ثمّ قلت:

ـ المهمُّ. . أنه مجاهد، وأنـه صحابيٌّ أو تـابعيٌّ رأى أميرَ المؤمنين عمر.

قال الحاج:

ـ بل هو صحابيٌّ جليل، ومجاهد كبير، وقائد شجاع، خاض غمار الحروب، وأسهم في فتح عدد من بلاد العراق وفارس، وكان من سادات قومه في الجاهلية وفي الإسلام. فهل عرفته يابنيّ؟

أعملتُ ذاكرتي، لعلها تسـعفني بمعرفـة ذلك الصَّحابيّ المجاهد، ولكنْ. . دون جدوى.

فتدخّل أبي بقوله:

ـ (نشَّفْتَ) ريق الولد يا حاج محمود.

فابتسم الحاج محمود وقال:

ـ أريد أن أختبر معلوماته، بعد الكلام الطويل العريض الذي قلتَه عنه.

الوالد: ما رأيك ياحاج، أني أنا نفسي لم أعرف صاحبك هذا؟

الحاج: وأنت يا أستاذ أحمد؟

الأستاذ: أنا أعرفه. . إنه جرير بن عبد الله البَجَليّ رضي الله عنه.

صادق: أنا لم أسمع إلا بجرير واحد.

الحاج: بالشاعر جرير الخَطَفيّ. . أليس كذلك؟

صادق: هذا ما علّمونـا إياه في المدرسة. . الشاعر جرير، وخصمه الشاعر الفرزدق، وخصمه الثاني، الشاعر الأخطل.

قال الحاج محمود في امتعاض:

ـ أنا لسـت ضدّ الشـعراء، ولكنْ. . يعلّمونكم ما هَبَّ ودَبَّ مـن

الشعراء، ولا يعلّمونكم شيئاً عن عظمائنا في التاريخ؟

فهوّن أبي عليه بقوله:

- احمد اللهَ يا حاج أنّهم لم يعلّموهم أسماء المغنّين والمغنّيات، والراقصين والراقصات.

فقال الحاج محمود:

- هؤلاء يسمعونهم في كل لحظة في الإذاعة، يشاهدونهم في التلفزيون، ويقرؤون أخبارهم في الصحف والمجلات الفنّيّة.. هؤلاء أكثر من الهمّ وأثقل من الدَّيْن على القلب يا أبا صادق.

فأبديت احتجاجي في أدب وقلت:

- أنا لست ممن يتتبّع أخبار أولئك، ولا أستمع لأصواتهم، ولا أقوى على مشاهدة صورهم، لا في الصحف والمجلات، ولا في التلفزيون.

فقال الأستاذ أحمد:

- بارك الله فيك يا بنيّ.. هكذا ينبغي أن يكون أبناؤنا قادة المستقبل.

نظر الحاج محمود إلى أبي وقال:

- البركة في تربية أبي صادق لأولاده.. إنه يربّيهم أحسن تربية..

يربّي عقولهم، ويصقل أرواحهم، ويعمر قلوبهم بكلّ نافع ومفيد لهم في دنياهم وأخراهم، ولو أنه اعتمد على المدرسة ومناهجها، وعلى ما تبثّه وسائل الإعلام المختلفة من سفاسف وموبقات، لفسدوا وفسد الجيل كله، وهذا ما يرتِّب علينا مسؤوليات كبيرة تجاه هذا الجيل الذي يسعى من يسعى إلى إفساده، ليكون لقمة سائغة لأعداء هذه الأمّة.

واختنق الحاج محمود بسُعاله، فسكتَ وقد دارت به الأرض، فأمسك رأسه بكفّيه، ورأيته يرفع حاجبيه مرّةً ومرّة، فتألمتُ لحاله، فيما أسرع إليه الأستاذ أحمد، وسقاه جرعة ماء وهو يقول:

ـ أعـداء هذه الأمة، وجهل أبنـائها، وانحراف منـاهج التربيـة في المدارس والجامعات، وفسـاد أجهـزة الإعلام. . كلُّ أولئـك سـاعدوا ويساعدون، وعملوا ويعملون على إجهاض عمليّات النُّهوض الحضاري بهذه الأمة، وهؤلاء الذين ذكرتموهم، وآخرون غيرهم، وكثير منهم ينتمون إلى النُّخْبة المثقفة. . أقول:

هؤلاء وغيرهم، أسافين تُدَقُّ لتعوق تقدُّمَ الأمّة، فكلما كثر المغنّون والراقصون ومن ينتسـبون إلى (الفنّ) الحديث، كثر السـقوط، وتتـالت الكوارث والسَّقَطات والهزائم.

وصحا الحاج محمود، وانقشعت الصُّفرة التي غشَّتْ وجهه، فرفع رأسه وقال:

ـ دعونا من ذكر هؤلاء، وسوف يكون يوسف هذه الأمة، الصحابيُّ الجليل جرير بن عبد الله البَجَليّ، ضيفنا في سهرة اليوم، فهل نبدأ؟

فأمَّنَ الجميع على رأي الحاج، وفتحتُ المسجّل، حتى لا تفوتني شاردة من حديث الحاج، المؤرّخ العسكريّ الكبير.

قال الحاج محمود:

ـ سوف أذكر ما يخطر على البال، والبركة في أسئلة صادق، فهي تذكرني بما نسيت.

وقال الشيخ علي:

ـ وإن كنت حضرت لأستمع، ولكني قد أذكّرك بما نسيتَه، أو أسألك بعض الأسئلة، وأخي الأستاذ ناجي مثلي في هذا.

رحَّبَ الحاج محمود بما قاله الشيخ علي، ثم قال:

ـ اسمُ صاحبنا إذن: جرير بن عبد الله البجلي.

صادق: البَجَليّ؟ نسبة إلى ماذا ياعمّي؟ أو إلى من ينتسب؟

الحاج : البجليّ نسبة إلى بَجِيْلة على وزن (فَعِيلة) وكلُّ ما كان على وزن (فَعِيلة) فالنّسبة إليه (فَعَلي) مثل : عقيدة : عَقَديّ ـ قبيلة : قَبَلي وهكذا . .

صادق : إذن من الخطأ أن نقول : عقائدي ، وطبيعي ، وبديهي ؟

الشيخ : عقائدي خطأ . . غلط به كثير من الكَتَبَة والصّحفيّين ، أمّا طبيعيّ وبديهيّ فصحيحتان فصيحتان ، جاءتا على خلاف القاعدة .

صادق : يعني . . من الغلط أن نقول : طَبَعيّ وبَدَهيّ ؟

الشيخ : القاعدة تقول : طَبَعي وبَدَهيّ ، والعرب قالوا : طبيعيّ وبديهيّ ، فأيّهما استخدمتَ جاز .

صادق : وما معنى بجيلة ياسيِّدي ؟

الشيخ : بجيلة اسم قبيلة في اليمن ، وإليها يُنسَبُ صاحبنا جرير رضي الله عنه .

الحاج : أصل بجيلة . . أو بجيلة ـ في الأصل ـ هي أمُّهم التي نُسبوا إليها .

الأستاذ : وهي بجيلة بنت صعب بن علي بن سعد العشيرة .

الحاج : بارك الله فيك ياأستاذ أحمد ، فذاكرتُك قويّة والحمد لله .

الأستاذ : بعض ما عندكم ياسيِّدي .

الحاج : وبجيلة قبيلة كبيرة ، تفرّعتْ منها عدّة بطون ، منها : قسر ، وأحمس ، ونمير ، وزيد . . أكمل ياأستاذ أحمد .

الأستاذ : وهُذْم ، وهديم ، ووداعة ، وغوث ، وعبقر ، وأشهل ، وسواها . .

وكانت بلادهم مع إخوتهم (خَثْعَم) في جبال السروات في اليمن والحجاز إلى (تَبَالة) وكانت دارهم جامعة ، وأيديهم واحدة ، حتى وقعت حرب بين أحمس وزيد . وعلى أثر ذلك ، افترقت بطون بجيلة ، وتقطّعوا في

قبائل العرب، يجاورونهم في بلادهم، ومازالوا متفرّقين حتى أذن عمر بن الخطاب لجرير أن يجمعهم ليوجّههم إلى العراق، لحرب الفرس.

الحاج: وكان أكثر بجيلة في العراق، ولم يكن منهم في الشام إلا عدد قليل.

الأستاذ: مع أنّ رغبة البجليين أن يكونوا في الشام، ولكنّ عمر بن الخطاب أغراهم ودفع لهم ربع الخمس من الغنائم، فتوجّهوا نحو العراق.

الحاج: سوف نتحدّث عن هذا في حينه إن شاء الله.

صادق: الحمد لله، وإلا .. ما فهمتُ شيئاً.

الأستاذ: كلُّ شيء بأوانه.

الشيخ: دعوني أشرح الأمر الآن، حتى لا يتكرر.. وصححوا لي إذا غلطت..

أراد جرير أن يجمع أبناء قبيلته المشتتين الموزَّعين في القبائل، وعرض الأمر على رسول الله ﷺ، ولكنّ الرسول الكريم توفّي قبل أن ينجز لجرير ما وعده به.

ونظر الشيخ علي في وجوه الحاضرين، فلمّا رآهم موافقين على كلامه تابع يقول:

ـ وفي خلافة الصدّيق أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ خرج جرير فيمن خرجوا إلى الشام تحت قيادة خالد بن سعيد بن العاص، وعرف جرير حاجة جيش خالد إلى المزيد من الرجال، ليتمكنوا من مواجهة جيوش الروم، فاستأذن قائده، ورجع إلى المدينة المنوَّرة، وكلّم أبا بكر في أمر بجيلة، وذكر له أن النبيَّ الكريم كان وعده بذلك، وأتاه بمن يشهد له بذلك، ولكنّ أبا بكر أبى.

صادق: لماذا يأبى، مادام الرسول القائد قد أذن له أو وعده بذلك؟

الشيخ: لأن أبا بكر كان مشغولاً بالفتوح، ورأى أنّ الوقت غير مناسب.

الحاج: ولذلك قال لجرير في غضب:

«ترى شُغْلنا ومانحن فيه بغوث المسلمين، ممن بإزائهم من الأسدين: فارس والروم، ثمّ أنت تكلّفني التشاغل بما لا يغني عمّا هو أرضى لله ورسوله؟

دعني وسرْ نحو خالد بن الوليد، حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين».

صادق: ونفّذ أمر الخليفة؟

الشيخ: طبعاً نفَّذ، وسار نحو العراق، والتحق بجيش خالد بن الوليد، وبقي معه يقاتل، حتى خرج خالد إلى الشام لنصرة جيش المسلمين، فذهب جرير معه، ثم استأذنه في العودة إلى المدينة، فأذن له، ولما تولّى الخلافة عمر، فاتحه جرير في جمع بجيلة، وطالبه عمر بالبيّنة.

صادق: البيِّنة على ماذا ياسيّدي؟

الشيخ: على أن الرسول الكريم ﷺ وعده بذلك، ثم لحق بربّه قبل أن ينجز له وعده، وجاءه جرير بالبيّنة.

صادق: فأنجز له الخليفة ما وعده به الرسول القائد ﷺ!

الشيخ: وكتب عمر إلى عماله على القبائل:

«مَن كان عنده أحد ينسب إلى بجيلة في الجاهلية، وثبت عليه في الإسلام، ويُعْرَفُ ذلك، فأخرجوه إلى جرير».

صادق: يا سلام!.

الشيخ: وعيَّنَ لهم مكاناً بين العراق والمدينة.

ونظر الشيخ علي في الحاضرين بعينين ضاحكتين وقال:

ـ وهكذا جُمعت بجيلةُ، وصار جرير شيخاً لها، بطلبٍ من سادتها، وافقهم عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وعلّق الأستاذ أحمد:

ـ تلخيص رائع، وبعد أن جمعها جرير، أخذتْ بجيلةُ مكانها البارز في معارك الفتح، كوحدة عسكرية مقاتلة ذات بأس، في جيش المسلمين في العراق.

صادق: إذن.. اسمه: جرير بن عبد الله البجليّ، من اليمن.

الحاج: وكنيتُه: أبو عمرو.

صادق: متى أسلم جرير يا عميّ الحاج؟

الحاج: في السنة التاسعة من هجرة الرسول القائد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الحاج: وهي سنة الوفود التي وفدت على الرسول القائد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الحاج: وكان حسن الصورة، جميلاً، وسيماً، مليح الشكل إلى الغاية، وكان عملاقاً، طوله ستة أذرع.

صادق: يعني.. كم متراً ياسيّدي؟

الحاج: حوالي ثلاثة أمتار.

صادق: ما شاء الله.

الحاج: ولذلك قال عنه أمير المؤمنين الفاروق:

«جرير يوسف هذه الأمة، وهو سيّد قومه».

الجميع: رضي الله عنه.

الحاج: وكان متواضعاً.. تصوَّروا.. كان يركب بغلته ويُرْكِبُ غلامه خلفه، وهو مَنْ هو مكانةً ورفعة شأن.

صادق: كنتم ذكرتم أن جريراً ـ رضي الله عنه ـ التحق بجيش البطل

خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ في العراق. أيْ أنه كان مقاتلاً، فماذا عن جهاده ياسيّدي الحاج؟

الحاج: إذا كنت تريد الحديث عن جهاد البطل جرير بن عبدالله، فاسمع قصّة جهاده من البداية.

نهض الحاج محمود بقامته المديدة، وتناول صينيّة الشاي، ثم عاد إلينا، فأسرعتُ إليه، وقمتُ بتقديم الضّيافة إلى السادة الحاضرين، وأنا في منتهى السعادة، وكليّ شوق لسماع الكثير عن بطولات صحابيّ جليل.

وتابع الحاج محمود حديثه:

ـ كان الرسول القائد ﷺ يثق بجرير، حتى إن جريراً كان يقول:

«ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا ضحك».

الشيخ: عليه الصلاة والسلام.

صادق: هنيئاً له بهذه الثقة الغالية، وبهذه المودّة وبهذا الحبّ. نعم ياسيدّي الحاج.

الحاج: ولذلك أرسله الرسول القائد إلى اليمن داعياً ومقاتلاً.

قال جرير:

«قال لي رسول الله ﷺ:

«ألا تريحني من ذي الخَلَصَة؟»

صادق: ما معنى ذي الخلصة يا سيّدي؟

الحاج: ذو الخلصة صنم أبيض منقوش عليه كهيئة التاج، وكان هذا الصَّنم في (تَبَالة) بين مكَّة واليمن، على مسير سبع ليال من مكة، وكانت قبائل بجيلة وخثعم وأزد السّراة ومَنْ قاربهم من بطون العرب، كانوا يعظّمونه ويُهْدون إليه، وكان ذو الخلصة في بيت يُطْلَقُ عليه في الجاهلية اسم (الكعبة اليمانيّة).

قال جرير لمّا طلبَ منه الرسـول القائد ﷺ أن يذهب إليـه ليهدمه: «يارسول الله. إني رجل لا أثبت على الخيل»

فضرب يـده على صدري، حتَّى رأيـت أثر يده في صدري، فقـال: «اللهم ثَبِّـتْه، واجعله هادياً مهدياً».

فما سقط عن فرس بعد.

صادق: الله أكبر.. الله اكبر.

ناجي: هنيئاً لأصحاب رسـول الله ﷺ، دعـوات رسول الله لهم، وشرف الصُّحبة، والجهاد تحت لوائه الشريف.

صادق: وبعدها ياسيّدي؟

الحاج: فسار جرير إلى ذي الخلصةِ على رأس مئة وخمسين فارساً، فهدم الصَّنم والبيت، وحرّقهما، وعاد سالماً، فدعا له النبيّ ﷺ.

صادق: قلت ياسـيّدي الحاج، إن الرسـول القائد أرسله إلى اليمن داعياً ومقاتلاً.

الحاج: نعم يا صادق.. أرسله الرسول القائد إلى اليمن، ليدعو أهله إلى التوحيد، وليقاتل من لا يستجيب لدعوته.

صادق: وهل استجابوا له؟

الحاج: بعثه النبيُّ إلى ذي الكُلاع بن ناكور، وإلى ذي عمرو، فذهب إليهما، وحاورهما حتى أقنعهما بالإسـلام، فأسـلما، وأسـلمتْ معهما (ضريبة بنت أبرهة)، وكانت زوجةً لذي الكُلاع.

صادق: وماذا يعني إسلام هؤلاء ياسيّدي؟

فانتفض الشيخ عليّ وقال:

ـ ماذا تقول يا ولد؟

في إسلام هؤلاء، إسلام أهل اليمن.

وعلّق الأستاذ ناجي على كلام أخيه الشيخ علي بقوله :

ـ ولذلك أمره النبيُّ الكريم ﷺ أن يبقى عندهم، ليعلّمهم أمور دينهم، وتعاليم هذا الإسلام العظيم، وبقي هناك حتى أخبره ذو عمرو بوفاة النبيّ الكريم ﷺ، عندها عاد جرير إلى المدينة، يحمل أحزانه لوفاة رسول الله ﷺ، قبل أن يملأ جرير عينيه منه أولاً، ولأنّ أكثر القبائل اليمنيّة ارتدت عن الإسلام بعد أن سمعت بوفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

وصعَّد الحاج محمود حسرةً من عمق أعماقه، ثم قال :

ـ عاد جرير ليخبر الخليفة أبا بكر بارتداد الناس عن الإسلام في اليمن، وبثبات من ثبت على الإسلام منهم، فما كان من الصّدّيق إلا أن يعيد جريراً إلى اليمن، ليضمَّ إليه من ثبت على الإسلام من بجيلة ومن القبائل الأخرى، وأمره أن يشاغل المرتدين بمن معه من المسلمين، حتى يأتيه المَدَدُ.

وتبسّم والدي وهو يقول :

ـ تذكرت طُرْفةً سمعتها منك يا سيّدي الحاج.

الحاج : هاتها يا أبا صادق.

الوالد : عندما دخل جرير إلى (الكعبة اليمانية) ليهدم الصنم (ذا الخَلَصَة) وجد هناك رجلاً يستقسم بالأزلام، فقال له جرير :

«إنّ رسول الله ﷺ، هاهنا، فإنْ قَدَرَ عليك ضَرَبَ عنقك»

صادق : فخاف وترك الأزلام؟

الوالد : بل استمرّ يضرب بها، عندئذٍ، وقف جرير فوق رأسه، وقال له : «لتكسرنّها، ولتشهدَنَّ أن لا إلـه إلا الله، أو لأضربَنَّ عنقك».

صادق : عندئذٍ كسرها وشهد.

الوالد : أجل يابنيّ. . عندما سمع تهديد جرير، كسر الأزلام، وشهد شهادة الحقّ.

صادق: ثم ماذا فعل جرير مع المرتدّين يا سيّدي؟

الحاج: تمكَّنَ من القضاء على المرتدين الذين صادفهم، ثم جاء المهاجر بن أميّة من عند أبي بكر، وكان آخر من تحرّك لقتال المرتدين، وانضمَّ جرير بمن معه إلى جيش المهاجر، وقاتلوا تحت لوائه، وحقّقوا انتصاراتٍ باهرة على المرتدين، حتى وصلوا إلى صنعاء.

أحمد: وكان لثبات جرير على إسلامه، بالرغم من ارتداد الكثير من رجال قبيلته (بجيلة)، وكان لعودته السريعة إلى اليمن، وقتاله المرتدين.. كان هذا وذاك وتلك، عوامل مهمّة لتحقيق النصر الساحق على المرتدين، والقضاء على حركة الرِّدَّة في اليمن.

صادق: وهل بقي جرير في اليمن يا سيّدي؟

الحاج: بل عاد ليتابع مسيرته الجهادية في بلاد الشام، تحت لواء القائد خالد بن سعيد بن العاص، ثم وجّهه الخليفة أبو بكر إلى العراق، ليقاتل تحت لواء القائد المغوار خالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين.

صادق: وعندما عاد خالد إلى الشام، وأخذ نصف جيش العراق معه لنجدة المسلمين في اليرموك، اصطحب معه البطل جرير بن عبدالله.

الحاج: وقاتل جرير في كل المعارك التي خاضها خالد وهو في طريقه إلى الشام.

صادق: وشارك في معركة اليرموك؟

الحاج: طبعاً.. وقد اختاره خالد ليكون ضمن الفدائيين الفرسان المئة الذين اختارهم من المهاجرين والأنصار، وكان كلٌّ واحد من هؤلاء المئة، يردّ جيشاً بمفرده.

صادق: ما شاء الله.

أحمد: وكان لأولئك الفرسان المئة تأثير كبير على معنويات الروم قبيل المعركة الحاسمة، كما كانوا أبطالاً صناديد طوال معركة اليرموك، فقد أبلوا فيها بلاءً حسناً..

الحاج: كان الواحد منهم يهدُّ صفوف الرُّوم هدّاً.

صادق: وبعد اليرموك، توغّل مع جيش خالد في بلاد الشام، ليفتحها مدينةً مدينةً.

الحاج: بل عاد إلى المدينة، وجمع قبيلته بجيلة ـ كما قلنا قبل قليل ـ وسار على رأسها إلى العراق، لنجدة المثنّى البطل.

صادق: إذن.. قاتل جرير تحت لواء المثنّى؟

الحاج: وأيَّ قتال!.

أحمد: كان المثنى يثق به وبكفايته، ولذلك، حين انسحب المثنّى من العراق، بعد معركة البويب، ونزل على حدود الصحراء، نشر قواته ما بين القطقطانة شمالاً، إلى غضي بالقرب من البصرة جنوباً، وجعل جريراً على رأس تلك القوات.

الحاج: وفي (البويب) كان جرير على رأس ألفي مقاتل من بجيلة، كانوا في جيش المثنى في معركة البويب، وكان لهم دورهم الفعّال في مطاردة فلول العدوّ المنهزم، وبعد عمليات المطاردة.

صادق: هل كان كل شيخ قبيلة على رأس قبيلته؟

أحمد: نعمْ.. وكانت القبائل تتحرك كوحدات عسكرية مقاتلة.. كلُّ قبيلةٍ تشكّل وحدة حربية في الميدان.

صادق: ذكرتم ـ يا سيّدي ـ معركة البويب، فهل تحدّثنا عنها؟

أحمد: لا بأس.. أنا أحدِّثك عنها يا بنيّ.

فتحرك الشيخ عليّ في مقعده، وطَرَفَ بعينيه المتعبتين عدّة مرات، ثم قال:

ـ حدّثنا جميعاً يا أستاذ أحمد.

فابتسم الأستاذ أحمد ابتسامته المقتضبة وقال للشيخ عليّ:

ـ أنت أستاذنا يا شيخ علي، ومنك نتعلّم، وكلامي في حضرتك جرأةٌ مني لا أُحْسَدُ عليها.

فألقى الشيخ علي نكتة ظريفة تناسب المقام، ثم قال:

ـ هاتِ حدّثنا يا أستاذ أحمد.

قال الأستاذ أحمد:

ـ الامتثال خيرٌ من الأدب، أو خير أنواع الأدب.. سوف أتحدّث، وأرجو منكم أن تصححّوا لي.

فقال الشيخ علي:

ـ نحن لسنا في جلسة تحقيق علميّ.. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، أنت خبير بتاريخنا العسكريّ.. أنت كاتب استراتيجي يا أستاذ أحمد.

فانبرى الحاج محمود يقول في امتعاض:

ـ عرَّبْنا كلمة استراتيجي بكلمة (سَوْقي).. سَوْقي يا شيخ عليّ. فقال الشيخ علي ضاحكاً:

ـ وإن كنت لا أثق بتعريب كثير من الكلمات التي تفضَّل رجال المجامع العلمية واللغوية بتعريبها، فإني لن أقف عند هذه الكلمة، وهات ما عندك يا أستاذ أحمد.

ركز الأستاذ أحمد نظاراته السميكة فوق عينيه المُجْهَدَتين، ثم قال:

ـ خرج القائد الفارسيّ مهران على رأس فرسانه من (المدائن) عاصمة الدولة الفارسيّة، متوجّهاً نحو الحيرة، ولكنَّ تحرُّكه لم يَخْفَ على المثنّى الذي كان يبثّ عيونه (أي جواسيسه) في عمق أرض العدوّ، وقدَّرَ المثنى أنّ حركة جيش مهران ستكون سريعة، فتحرّك على الفور نحو البويب، لأنه قدَّر أن مهران سيتوجّه نحو البويب. وكتب المثنّى إلى جرير يأمره باللحاق به إلى البويب، وبسرعة.

وعندما توقّف الأستاذ أحمد عن الكلام، سألته عن البويب فقال:

ـ البويب كانت قناة تصريف لنهر الفرات قبيل موضع الكوفة، فيصبُّ ـ أيام الفيضان ـ في الجوف.

صادق: نعمْ يا سيّدي.

أحمد: صدق حَدْسُ (أي ظنُّ) المثنى، إذ كان مهران قد صار بحذائهم من وراء نهر الفرات، في مكان اسمه (بسوسيا) وكان مع جيشه ثلاثة أفيال.

صادق: وكم كان جيش المسلمين يا سيّدي؟

أحمد: كان مع المثنّى ثمانية آلاف مقاتل، منهم ألفان من قبيلة بجيلة. عبَرَ مهرانُ نهرَ الفرات، واصطفَّ الفريقان للقتال.

صادق: متى كان هذا يا سيّدي؟

أحمد: في شهر رمضان.

صادق: والناس صيام؟

أحمد: لكنَّ المثنى أمرهم أن يُفْطِروا، ويتقوَّوا على قتال عدوّهم بالطعام.

صادق: فأفطروا؟

أحمد: نعمْ أفطروا.. ثم صفّهم المثنَّى صفوفاً كصفوف الصلاة، وخطب فيهم، وحمَّسَهم، وكان يمرّ على حملة الرايات ويقول لهم:

«إني لأرجو ألاّ تُؤتَى العربُ اليومَ من قِبَلكم».

ويقول فيما كان يقول:

«واللهِ ما يسرُّني اليوم لنفسي شيء، إلا وهو يسرُّني لعامّتكم».

وكان المجاهدون يتجاوبون مع ما يقول، ويتحمّسون لقتال العدوّ.

ثم التحم الجيشان، وحمل المثنّى على مهران، فأزاله عن مكانه في قلب الجيش، حتى أدخله في ميمنته، واستمرَّ المثنّى يضغط عليه بقلب جيش المسلمين الذي كان المثنّى يقوده، حتى خالطوا الفرس، واجتمع قلبا الجيشين، وارتفع الغبار، واقتتلت الأجناب بشدّة، والمثنّى يضغط على مهران.

صادق: وصاحبنا جرير؟

أحمد: كان يقاتل مع المثنّى، واستطاع جرير ومعه المنذر بن حسان أن يقتلا مهران، وكان مهران على فرس أحمر مدرَّع، بين عينيه هلال، وعلى ذيله أهلّة من نحاس.

صادق: الله أكبر!.

أحمد: وقُتل من دهاقين الفرس: شهر براز، وكان قائد الفرسان في المعركة.

صادق: الله أكبر!.

أحمد: وتمكَّنَ قلب جيش المسلمين، من إفناء قلب جيش المشركين، وقسموا جيشهم إلى قسمين، وانفصلت ميمنة جيش الفرس عن ميسرته، ثمّ بدأت كلتا الميمنة والميسرة تهتزان تحت ضربات قلب جيش المسلمين، الذي كان يضغط على الأجناب الداخلية لجيش الفرس، حتى أجبروهم على الفرار منهزمين، وخشي المثنّى أن ينجوا بفرارهم من القتل، فسابقهم إلى الجسر الذي سيعبرون عليه، ومنعهم من العبور، وقطع عليهم خطَّ الرجعة، فافترقوا بشاطئ الفرات، يلتمسون مهرباً للنجاة بأرواحهم، فتداولتهم خيول المسلمين، وتبعتْهم إلى الليل، ومن الغد إلى الليل، حتى أبادوهم، فما كانت معركة بين العرب والعجم أبقى رمّةً وأشلاء وجثثاً منهم.

صادق: الله أكبر!.

الشيخ: كم كان عدد القتلى من الفرس يا أستاذ أحمد؟

أحمد: مئة ألف.

الوالد: الله أكبر!.

صادق: والمطاردة؟ ألم تقولوا: إن قبيلة بجيلة طاردت فلولهم؟

أحمد: بلى.. قال المثنّى:

«من يتبع الناس حتى ينتهي إلى المسيّب (على نهر دجلة)؟ فقام جرير في قومه وقال:

«يا معشر بجيلة!.

إنكم، وجميع من شهد هذا اليوم في السابقة والفضيلة والبلاء سواء.. فلا يكوننَّ أحدٌ أسرعَ إلى هذا العدوّ، ولا أشدَّ عليه منكم، فإنما تنتظرون إحدى الحُسْنيين:

الشهادة والجنّة.

أو الغنيمة والجنّة».

فتحمّست بجيلة، وطاردت فلول المنهزمين، وأصابت منهم الكثير.

صادق: الله أكبر!

أحمد: ثم عاد جيش المسلمين إلى الحيرة، ونظّم المثنّى حامياته في أرض السَّواد، وأرسل جريراً إلى ميسان.

ودار نقاشٌ حامٍ بين السادة العلماء حول الفطر في رمضان، إذا كان هناك ما يدعو إليه كالقتال في سبيل الله، وعن الأوضاع القبليّة التي لم يقض عليها الإسلام، ثم استثمرها القادة الأبطال كخالد وجرير، ومنهم من لام جريراً ـ رضي الله عنه ـ لأنّه أصرَّ على جمع قبيلته بجيلة، فردَّ بعضهم على هذا اللوم ردّاً عنيفاً، فالرسول القائد نفسه وعده بذلك، وأمير المؤمنين الحاكم الصّلب الذي لا تأخذه في الله لومة لائم سمح له بذلك، لأنه عرف أن الإسلام ليس ضدَّ القبيلة وتجمُّعها وتكتُّلها، بل هو ضدّ التعصُّب للقبيلة.

وكنت أراقب ذلك الحوار السّاخن، في إعجاب، ثم إنّ أبي نبّهني إلى المسجّل، فأغلقتُه، حتى لا أسجِّل الأصوات المرتفعة، ولذلك، فاتني خيرٌ كثير من الأدلّة التي استشهد بها كلُّ واحد منهم، تأييداً لرأيه . .

وقال الأستاذ أحمد:

ـ كان البطل الذي لم تلد النساء مثله: خالد بن الوليد، إذا حمي الوطيس، صاح بأعلى صوته: «تمايزوا أيها الناس» والتمايز كان بانحياز أبناء القبيلة الواحدة إلى سيّدها، والقتال تحت لوائه. وقد علمتم أيَّ دور قامت به قبيلة بجيلة في معركة القادسيّة.

فاهتبلتُ الفرصة، وسألت الأستاذ أحمد:

ـ إذن . . قاتلت بجيلة في معركة القادسيّة؟

أحمد: وأبلت بلاءً حسناً، وكادت تفنى وهي تقاتل في اليوم الأول، لولا أن تداركها بنو أسد، وبطلهم الصّنديد: طليحة بن خويلد، بأمر من القائد سعد بن أبي وقّاص.

صادق: وجرير كان معها؟

أحمد: وكان على رأسها، فأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد حشد لهذه المعركة التاريخية الفاصلة حشوداً كثيرة، ولم يترك رئيساً، ولا ذا رأي، ولا ذا شرف في قومه، ولا ذا سطوة، ولا خطيباً، ولا شاعراً، إلا رمى به الفرس . . رماهم عمر بوجوه الناس، وغُرَرهم ودُرَرهم وهو يقول: «والله لأضربنَّ ملوك العجم، بملوك العرب».

صادق: مَنْ مِنَ الشّعراء كان في القادسيّة يا أستاذي الكريم؟

أحمد: كان فيها ـ مثلاً ـ الشاعر البطل المغوار أبو مِحْجَن الثقفي.

فتحرك الشيخ علي في مجلسه حركةً تنمُّ عن استعداده للكلام، فسكت الأستاذ أحمد، وقال الشيخ علي:

ـ دعوا الشاعر والشعراء لشيخكم الأديب، فهو أَعْرَفُ بهم منكم.

وتبسَّم الحاضرون، وقال أبي:

ـ أنت لها ولهم يا سيّدنا الشيخ.

فقال الشيخ عليّ:

ـ أبو محجن الثَّقفيّ هو الشاعر البطل عمرو بن حبيب، وهو أحد الأبطال الشعراء الكرماء في الجاهليّة والإسلام، أسلم في السنة التاسعة للهجرة، وكان مبتلى بشرب النبيذ، فأقام عليه عمرُ الحدّ أكثر من مرّة، ثمّ نفاه أمير المؤمنين عمر إلى جزيرة في البحر، فهرب أبو محجن، ولحق بالقائد سعد بن أبي وقاص في العراق، وكانت معركة القادسيّة، وأبو محجن في الأغلال.

صادق: لماذا في الأغلال يا سيّدي؟

الشيخ: لأنّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كتب إلى سعد يأمره بحبس أبي محجن، فحبسه سعد عنده، واشتدّ القتال بين المسلمين والفرس، وأبو محجن ينظر إلى المسلمين وهم يفرّون ويكرّون، ولا يستطيع فعل شيء للمسلمين.. نادى سعداً ورجاه أن يفكَّ قيوده ليقاتل مع المسلمين، فلم يأبه سعدٌ له ولا لرجائه، فانطلق لسانه ينشد:

كفى حَزَناً أن تُطْرَدَ الخيلُ بالقَنا ... وأُتْـرَكَ مشدوداً عليَّ وَثاقيا
إذا قمتُ عنّاني الحديد، وأُغلقتْ ... مصاريعُ مِنْ دوني تُصِمُّ المناديا
وقد كنتُ ذا مالٍ كثير وإخوةٍ ... فقد تركوني واحداً لا أخاليا
أريني سلاحي، لا أبالك، إنني ... أرى الحرب ما تزداد إلا تماديا

إلى آخر القصيدة..

وجاءته سلمى امرأة سعد، فالتمس منها أن تحلّ قيده، وعاهدها أن يعود إلى القيد إن سَلِمَ، فخلَّتْ سلمى سبيله، فقاتل قتالاً عجيباً على فرس سعد.

صادق: وسعد؟

الشيخ: كان مريضاً مصاباً بالدَّمامل، ولا يقوى على القتال، فحطَّمَ أبو محجن جيش الفرس، وكان سعدٌ ينظر من شرفته إلى ساحة المعركة، ويشاهد أبا محجن يصول ويجول ويجندل الأبطال بسيفه تارةً، وبرمحه تارةً أخرى، وكان يراه على فرسه، وأظنّها البلقاء، فكان يقول لنفسه:

«لولا أنّ أبا محجن في حبسه وقيده، لكان ذلك البطل أبا محجن».

وقد قال بعض المؤرخين:

«كان أبو محجن سببَ هزيمة الفُرْس»

وأنا أقول: كان من جملة أسباب هزمت الفُرْسَ.

صادق: ولم يعلم القائد سعد بما كان من أمر أبي محجن؟

الشيخ: بل أعلمته زوجته سلمى بذلك، وطلبت منه أن يفكّ القيود عنه، وأن يخرجه من محبسه، ففعل سعد.. أطلق سراحه، وقال له: «لا ضربتك في الخمر أبداً»

فأجابه أبو محجن:

«كنتُ آنَفُ أن أدع الخمر من أجل جَلْدِكم، أمّا الآن.. فلن أشربها والله أبداً».

الوالد: غفر الله له، ورضي عنه، ما كان أنبله!.

تنحنح الأستاذ أحمد، وقال معلقاً على حديث الشيخ عليّ:

ـ هناك أربع روايات لحبس أبي محجن، ذكر الشيخ علي إحداها، وأنا أستبعد هذه الرواية، فليس من حقّ سعد إطلاق سراح أبي محجن، وقد أمر الخليفة بحبسه، كما ليس من حقّه أن يعطّل حدّاً من حدود الإسلام، وهو حدّ الخمرة.

وقال الحاج محمود:

ـ قال بعض المؤرخين:

سألتْ سلمى أبا محجن الثّقفي :

«في أيِّ شيء حبسك هذا الرجل؟»

قال أبو محجن :

«أمَا والله ما حبسني بحرامٍ أكلتُه ولا شربتُه، ولكنّي كنتُ صاحب شراب في الجاهلية، وأنا امرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني، فيبعثه على شفتي أحياناً، فيُساء لذلك ثنائي . . قلت أبياتاً في الخمرة، فحبسني من أجلها، دون أن أشربها» .

فسعدٌ حبس أبا محجن للأبيات التي ذكرها في الخمرة، لا لأنه شربها، وقد وعده سعدٌ بأن لا يحبسه مرة أخرى إذا ذكرها في شعره .

أحمد : أمّا أنا، فلي رأي آخر يخالف آراءكم . . وهو أن سبب حبسه، كان بسبب شغبه على سعد ـ رضي الله عنه ـ لأنه استخلف خالد بن عرفطة، قبيل معركة القادسيّة . . وهذا يقودنا أو يعيدنا إلى جرير بن عبد الله البجلي ـ رضي الله عنه ـ فقد آزر جريرٌ سعداً، وقال للناس المشاغبين : «أمَا إني بايعت رسول الله ﷺ على أن أسمع وأطيع لمن ولّاه اللهُ الأمرَ، وإن كان عبداً حبشيّاً» .

صادق : فهدأ المشاغبون؟

أحمد : وسكنوا، وكانت المعركة الفاصلة التي انتصر فيها المسلمون على الفُرس انتصاراً هائلاً .

صادق : ياليتكم تذكرون لنا بعض مناقب الصحابيّ الجليل جرير .

فتوجّه الشيخ علي نحو أخيه الأستاذ ناجي، كأنه يحثّه على الكلام، فقال الأستاذ ناجي في حياء جمّ، وتواضعٍ ينمُّ عن زُهدٍ في الكلام :

ـ سوف أذكر لكم بعض ما أعرف عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه .

أولاً : أحبُّ أن أنوّه، أنّ دور جرير وقبيلته بجيلة في فتوح بلاد العراق وفارس عامة، وفي القادسيّة خاصة، كان دوراً كبيراً فعالاً .

ثانياً: سأروي هذه الحادثة التي رواها جرير نفسه فقال:

«إنّ رجلاً كان مع أبي موسى الأشعري، وكان ذا صوتٍ ونكاية في العدوّ، فغنموا مغنماً، فأعطاه أبو موسى بعضَ سهمه (من الغنائم) فأبى أن يقبله إلا جميعاً، فجلده أبو موسى عشرين سوطاً، وحلقه».

صادق: وسكت الرجل؟

ناجي: بل جمع الرّجل شعره، ثم رحل إلى عمر بن الخطاب، حتى دخل عليه، فأخذ شعره، ثمّ ضرب به صدرَ عمر بن الخطاب، ثم قال:

«أمَا والله لولا النار».

فقال عمر:

«صدق والله.. لولا النار».

فقال الرجل:

«يا أمير المؤمنين! إني كنت ذا صوتٍ ونكاية». وأخبره بما كان من أبي موسى الأشعريّ، وقال:

«ضربني أبو موسى عشرين سوطاً، وحلق رأسي».

صادق: يا ويح أبي موسى من عدل عمر!.

ناجي: فقال عمر:

«لأنْ يكون الناس كلُّهم على صرامة هذا، أَحَبَّ إليَّ من جميع ما أفاء اللهُ علينا».

وكتب عمر إلى أبي موسى:

«سلام عليك..

أما بعدُ:

فإنّ فلاناً أخبرني بكذا وكذا، فإن كنت فعلتَ ذاك في ملأ من الناس،

فعزمتُ عليك لمّا قعدتَ له في ملأ من الناس حتى يقتصَّ منك، وإن كنتَ فعلتَ في خلاء من الناس، فاقعدْ له في خلاء من الناس حتّى يقتصّ منك».

صادق: واقتصَّ الرجلُ من القائد أبي موسى؟

ناجي: سلَّمَ الرجل الرسالة إلى أبي موسى، وعَرَفَ المسلمون فحواها، فطلبوا منه أن يعفو عن قائدهم أبي موسى.

فصحت بلا وعي:

ـ لا.. لا تعفُ عنه أيها الرجل!.

فابتسم السادة الأفاضل، وتابع الأستاذ ناجي يقول:

ـ فقال لهم الرجل بقوة:

«لا والله.. لا أدَعُه لأحد من الناس».

فلما قعد أبو موسى ليقتصَّ منه، رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال:

«اللهمّ إني قد عفوت عنه».

فارتفع صوتي بالتكبير إعجاباً بشهامة الرجل الذي عفا عند المقدرة، بعد أن بيَّنَ للناس أنّ لصاحب الحقّ مقالاً وفعالاً، وأنّ الله الذي كرّم بني آدم، يأمرهم بالمحافظة على كرامتهم، وعدم السكوت عن حقّهم، فليس من حقّ أحد مهما علا أن يمتهن كرامة أحد مهما نزلت مكانته.

وعلق السادة العلماء تعليقات إيجابيّة على موقف الرجل، وعلى عدل الإسلام الذي مثّله عمر بن الخطاب خير تمثيل، وأقامه في أرض الله.

ثم قال الشيخ عليّ:

ـ هات حادثة أخرى يا ناجي.

فامتثل الأستاذ ناجي، وقال:

ـ قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه:

قـدِمَ ناسٌ من أهل العراق، وكنتُ فيهم، على أميـر المؤمنين عمـر

رضي الله عنه، فأتاهم بجَفْنَة (قَصْعة) فيها طعام مصنوع من خبز وزيت، وقال لهم: خذوا (أي كُلُوا).

فأخذوا (أكلوا) أخذاً (أي أكلاً) ضعيفاً.

الشيخ: كانوا يظنون أن عمر سيقدّم لهم أفخر طعام، وأطيب شراب.

ناجي: فقال لهم عمر:

«قد أرى ما تفعلون. فأيَّ شيء تريدونه؟ أحلواً وحامضاً وحارّاً وبارداً، ثم قَذْفاً في البطون؟»

الشيخ: لو جاؤوا اليوم، لبهرتهم الموائد التي يُنْفَقُ عليها من المال العامّ.

ثم نظر الشيخ نحو أخيه وتساءل عمّا إذا كان قد انتهى من الحديث عن جرير رضي الله عنه، فقال الأستاذ ناجي:

- في الذاكرة أشياء كثيرة، أختار لكم منها هذه.. قال جرير:

«لمّا صالح أبو بكر أهلَ الردّة، صالحهم على حرب مُجْلِيَة، أو سِلْمٍ مُخْزِيَة». فقالوا:

«قد عَرَفْنا الحرب المُجْلية (أي المُخْرِجَة عن الدار والمال) فما السِّلْم المخزية؟»

فقال أبو بكر رضي الله عنه:

«تَشْهَدُون أنّ قتلانا في الجنة.

وأنّ قتلاكم في النار.

وأن تدوا (أي تدفعوا ديات) قتلانا

ولا نَدي (أي لا ندفع ديات) قتلاكم.

وأنّ ما أصبْنا منكم، فهو لنا

وما أصبتم منّا، رددتموه إلى أهله».

فتعالت الصّيحات والتعليقات حول كلام الصّدّيق رضي الله عنه، عن السلم المخزية، كيف كانت في ماضينا، وكيف صارت في حاضرنا. ثم أستأذن أبي صاحب البيت، وعدنا إلى البيت، وأنا أحمل كنزاً ثميناً من المعلومات الرائعة، وخاصّة عن يوسف هذه الأمة، الصحابيّ المجاهد الذي دعا له الرسول القائد ـ ﷺ ـ وقال له، وهو ينظر إلى ماحَبَاه الله من جمال:

«إنك امرؤ قد حسَّنَ الله خَلْقَك، فحسِّنْ خُلُقَك»

وقد حسَّنَ جريرٌ خُلُقَه، كما أراد الرسول القائد ﷺ الذي كان يعجب من عقل جرير، كما يعجب من جماله، رضي الله عنه، ولهذا كان الإمام عليٌّ بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ يقول عنه:

«جريرٌ منّا ـ أهل البيت ـ ظهراً لبطن».

أويتُ إلى سريري، وفتَحتُ المسجل، لأستعيدَ ما سمعتُه في السهرة، وفيما أنا بين النائم واليقظان، أقبل نحوي رجلٌ وسيم جميل عرفته للوَهْلة الأولى من طوله وجماله.. إنه الصّحابيّ الجليل جرير.

نهضتُ إليه، ورحَّبتُ به ثم قلت له:

ـ أمضيناسهرة اليوم في الحديث عنك يا سيّدي، وقد سجّلتُ ما دار في السَّهرة في هذا الشريط.

وجاءت أختي صادقة، وهي تعرك عينيها، كأنها قامت من نومها في هذه اللحظة، ورحَّبت بجدّها الذي تشعّ الأنوار من وجهه الصَّبيح، ثم قالت له:

ـ أريد أن تحدّثنا عن نفسك يا جدّي العزيز.

وجاء جواب الصحابيّ الجليل كحبّات السُّكّر:

ـ اسمي جرير بن عبد الله، وكنيتي: أبو عمرو، وأنتسب إلى قبيلة بَجيلة، ونحن من قحطان، من عرب اليمن.

صادقة: وماذا عن إسلامك يا سيّدي الفاضل؟

جرير: سمعْنا برسول الله ﷺ، وقرّرنا الدّخول في الإسلام، ثمّ إنني ذهبتُ مع وفد من قبيلتي إلى رسول الله ﷺ، فلمّا دنوتُ من المدينة، أنختُ راحلتي (أي ناقتي) وحلَلْتُ عَيْبَـتي (وهي وعاء من جلد فيها متاعي) ولبستُ حُلّتي (أي ثوبي الجيّد) ثمّ دخلتُ المسجد، فإذا برسول الله ﷺ يخطب، فرماني النـاس بالحَدَقِ (أي بعيونهم) فقلت لجليسـي (الذي بجانبي):

«يا عبد الله. هل ذكر رسولُ الله من أمري شيئاً؟»

قال:

«نعمْ، ذكرك بأحسن الذّكر، بينما هو يخطب، قال:

«يطلع عليكم من هذا الباب رجلٌ من خير ذي يَمَن، على وجهه مِسْحَةُ مَلَكٍ» فحمدت الله على ذلك.

صادقة: صدق رسـول الله ﷺ.. على وجهك، يا جديّ، مِـسْحَةُ مَلَك.

صادق: كما قال أمير المؤمنين عمر: يوسف هذه الأمة ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١].

جرير: أنا لا أحبُّ الإطراء يا أولادي. ثم.. أين أنا من نبيّ الله يوسف عليه السلام؟

صادقة: معذرةً يا جدّي.. ونحن نصغي إليك.

جرير: أسـلمتُ بعد نزول سـورة المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح خفّيه في وضوئه.

بعث إليّ رسول الله ﷺ فقال:

«يا جرير، لأي شيء جئتَ؟»

قلت:

لأسلم على يديك، يا رسول الله».

فألقى عليّ كساءً، ثم أقبل على أصحابه فقال:

«إذا أتاكم كريمُ قومه فأكرموه».

ثم قال لي:

«يا جرير. أدعوك إلى شهادة أنْ لا إلـه إلا الله.

وأني رسول الله

وأن تؤمن بالله

واليوم الآخر

والقَدَرِ خيرِه وشرِّه

وتصلّي الصلاة المكتوبة

وتؤدّي الزكاة المفروضة».

وقال رسول الله ﷺ:

«بُني الإسلام على خمس:

شهادة أنْ لا إلـه إلا الله

وإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة

وحجّ البيت

وصوم رمضان».

وقد بايعْنا النبيَّ ﷺ على مثل ما بايع عليه النساء.

صادق: وما بيعة النساء يا سيّدي؟

صادقة: عفواً يا جديّ، أنا أجيبه، فأنا أحفظ حديث بيعة النساء.

جرير: هاتيه يا ابنتي.

صادقة : اسمي صادقة يا جدِّي ، واسم أخي هذا : صادق .

فأشرق وجه جرير بابتسامة لم أرَ مثلها ثم قال :

ـ هاتيه يا صادقة .

قالت صادقة :

«عن أمِّ عطية ـ رضي الله عنها ـ قالت :

لمّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة ، جمع نساء الأنصار في بيت ، ثم أرسل إليهنَّ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه ، فقام على الباب فسلَّمَ عليهنّ ، فرَدَدْنَ السلام ، فقال :

أنا رسولُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إليكنّ .

فقلْنَ :

«مرحباً برسول الله ﷺ ، وبرسول رسولِ الله ﷺ» .

فقال عمر :

تبايعْنَ على أن لا تُشْرِكْنَ بالله شيئاً

ولا تسرقْنَ

ولا تَزْنيْنَ

ولا تَقْتلْنَ أولادكنّ

ولا تأتيْنَ ببُهتانٍ تَفْتَرينَه بين أيديْكُنَّ وأرجُلِكُنَّ

ولا تَعصِيْنَ في معروف» .

قلنَ :

«نعمْ»

جرير : بارك الله فيك يا صادقة . . هذه هي بيعة النساء التي بايعْنا رسول الله عليها ، مَنْ مات منّا ولم يأت شيئاً منهنّ (كالسرقة والزِّنى

وسواهما) ضمنَ الجنّة، ومن مات منّا وقد أتى شيئاً منهنّ، وقد أقيمَ عليه الحدُّ، فهو كفّارة، ومن مات منّا وقد أتى شيئاً منهنّ فستر عليه، فعلى الله حسابُه.

صادقة: بايعتم على ذلك يا جدّي؟

جرير: أجلْ يا ابنتي، ولكنني استدركتُ فقلت: يا رسول الله، فيما استطعت؟

قال: فيما استطعت.

فكانت كلمتي هذه رخصة لسائر المسلمين.

كما بايعتُ رسول الله ﷺ على السَّمْع والطاعة، وأن أنصح لكلّ مسلم.

صادق: ولهذا كنتَ ـ يا سيّدي ـ إذا بعتَ أو اشتريتَ تقول لمن تبيعه أو تشتري منه:

«أما إنّ الذي أخذنا منك أحبُّ إلينا ممّا أعطيناك. فاخترْ».

هذا ما سمعته في السَّهْرة.

صادقة: الله أكبر.. هذه هي النصيحة للمسلمين.

صادق: وسوف أذكرها لأبناء التجّار والموظفين وغيرهم، لعلهم ينبّهون آباءهم، فقد غاب النُّصح للمسلمين في هذه الأيام.

صادقة: هل من مزيد، يا جديّ، من الأحاديث والذكريات مع الرسول القائد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

جرير: حبّاً وكرامة يا أولادي، فليس أحلى من الحديث عن النبيّ الكريم ﷺ، وإني لأعرف الكثير، فرسول الله ﷺ ما حجبني عنه منذ أسلمتُ، ولا رآني إلا تبسَّم.

صادقة: هنيئاً لك يا جدّي.. وهات أسمعنا.

جرير: كنّا عند النبيّ ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم سترون ربّكم كما ترون هذا، لا تُضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم أنْ لا تُغْلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا».

ثم قال:

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠].

فرفعنا ـ صادقة وأنا ـ أكُفَّنا إلى السماء وابتهلنا في ضراعة وخشوع:

ـ يا رب اجعلنا ممن ينظر إليك!.

ـ يا رب لا تحرمنا من رؤية وجهك العظيم!.

وأمَّنَ الصَّحابيُّ الجليل على دعائنا، ثم قال:

ـ سأروي لكم هذه الحادثة، فافهموها جيّداً..

خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلمّا بَرَزنا من المدينة، إذا راكبٌ يُوْضِعُ (أي يسرع) نحونا، فقال رسول الله ﷺ:

«كأنّ هذا الراكب إياكم يريد».

فانتهى الرَّجلُ إلينا (أي وصل) فسلَّمَ فرَدَدْنا عليه، فقال له النبي ﷺ:

«من أين أقبلتَ؟».

قال: من أهلي وولدي وعشيرتي.

قال النبيُّ الكريم ﷺ: «فأين تريد؟».

قال الرجل: أريد رسول الله ﷺ.

قال النبي الكريم: «فقد أصبْتَه ـ أي وَجَدْتَه ـ».

قال الرجل: يا رسول الله، علّمني. ما الإيمان؟

قال: «تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وتقيم الصلاة

وتؤتي الزّكاة

وتصوم رمضان

وتحجّ البيت».

قال الرجل: قد أقررتُ.

وسكتَ الصّحابيُّ الجليل لحظةً ثم تابع يقول:

- ثمّ إنّ بعيره (أي جمله) دخلتْ يدُه في شبكة جُرْذان، فهوى بعيرُه وهوى الرجل، فوقع على هامته (أمّ رأسه) فمات، فقال رسول الله ﷺ: «عليّ بالرجل».

فوثبَ إليه عمّار بن ياسر وحذيفة فأقعداه، فقالا:

«يا رسول الله قُبِضَ الرجل (مات)».

فأعرضَ عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما:

«أما رأيتما إعراضي عن الرجل؟ فإني رأيت ملكين يدسّان في فيه من ثمار الجنة، فعلمتُ أنه مات جائعاً».

ثم قال رسول الله ﷺ:

«هذا - والله - من الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ثم قال النبيُّ الكريم ﷺ:

«دونكم أخاكم».

فاحتملناه إلى الماء فغسّلناه، وحنّطناه، وكفّنّاه، وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير (أي حافة) القبر فقال: «ألْحِدُوا ولا تَشُقُّوا، فإنّ اللَّحْدَ لنا، والشّقّ لغيرنا».

كانت الحادثة مؤثّرة، ومع أني لم أفهم معنى «اللحد لنا والشقّ لغيرنا» فإنني لم أسأل عن معناها، وقلت في نفسي: سوف أسأل أهل العلم عنها،

ولا أريد أن أعكّر الأثر الذي تركته الحادثة في نفسي.

كان الصَّحابيُّ المهيب قرأ أثر الحادثة في نفوسنا، فانتقل بنا إلى جوّ آخر، جوٍّ الذَّوق الرفيع، والحبّ والأُلفة وما شئتَ من خُلُقٍ كريم تميّز به الرسول القائد ﷺ، فقال:

ـ اسمعوا هذه الحادثة أيضاً:

جئت إلى النبيّ ﷺ وهوفي بيت مزحوم، فقمت بالباب، فنظر النبيُّ ﷺ يميناً وشمالاً فلم يرَ مكاناً متّسعاً، فأخذ النبي ﷺ رداءه، فلفَّه، ثمَّ رمى به إليّ وقال لي: «اجلسْ عليه» فأخذت الرّداء الكريم فضممتُه ثمّ قبّلتُه، ثمّ رددْتُه على النبيّ ﷺ وقلتُ:

«أكرمك اللهُ يا رسول الله كما أكرمتني». ثم جلست على الأرض.

فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أنّك لا تبغي عُلُوّاً في الأرض ولا فساداً».

وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

فعلّقتْ صادقة:

ـ وأنت يا جدّي، من سادة الكرماء، وحقٌّ علينا أن نكرمك، امتثالاً لأمر الرسول القائد ﷺ، ثم لأنك أهل للإكرام، يايوسف هذه الأمّة.

وكأنَّ الصَّحابيَّ الجليل خشي من امتداحه وإطرائه، فسارع يقول:

ـ اسمعوا هذه الحادثة:

كنّا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ، فجاءه قومٌ عُراةٌ حُفاةٌ يلبسون العباء، وهم يتقلّدون سيوفهم، عامّتُهم من مضر، بل كلُّهم من مُضر، فتمعَّرَ (أي تغيَّرَ) وجه رسول الله ﷺ لما رأى بما بهم من الفاقة (الفقر) فدخل ثمّ خرج، فأمر بلالاً رضي الله عنه فأذّنَ وأقام، فصلّى ثمّ خطب فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر : ١٨]

تصدَّقَ (أي فليتصدَّق) رجلٌ من ديناره، من درْهَمه، من ثوبه، من صاع بُرّه (أي قمحه) من صاع تمره، ولو بشقِّ تمرة».

فجاء رجلٌ من الأنصار بصرّة كادت كفُّه تعجزُ عنها، بل قد عَجَزَتْ، ثمّ تتابع الناسُ، حتى رأيتُ كومين من طعام وثياب، حتى رأيتُ وجهَ رسول الله ﷺ يتهلّل كأنّه مَذْهَبة (أي كأنه مموَّهٌ بالذهب) فقال رسول الله ﷺ :

«مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنة فله أجرُها وأجْرُ من عملَ بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سُنّة سيّئة كان عليه وزرُها ووزر مَنْ عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

صدق الرسول القائد عليه الصلاة والسلام، وصدق سيّدي جرير بن عبد الله فيما روى من حديث رسول الله، وقد كانت رواية الحادثة مؤثّرة، أثّرتْ في نفوسنا جميعاً، كما كان أثرها ظاهراً على الوجه الجميل، وعلى اللسان العذب الذي كان يرويها في تأثُّرٍ بالغ . .

ورأى الصحابيُّ الجليل إقبالنا عليه، وتعلقنا بحديثه، فقال :

- وجاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ، فأصابته رعدة من هيبة النبيّ الكريم ﷺ، فقال له النبيُّ ﷺ :

«هَوِّنْ عليك، فإني لستُ بملك، إنمّا أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد».

فسألتُ الرجل الصالح عن معنى القديد، فقال :

- هو اللحم المجفَّف، يأكله عامّة الناس الذين لا يستطيعون نَحْرَ الذبائح، وأكْلَ اللحم الطازج.

فعلقت صادقة :

- رحم الله أجدادنا العِظام، كم عانوا من الجوع والفقر، حتى جاء

الإسلام، فأطعمهم الله به من جوع، وآمَنَهم من خوف، وكساهم من عُري . .

وقلت أنا:

ـ لقد أغنى الإسلامُ الناس .

جرير: واحفظوا هذين الحديثين الرائعين . .

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ يُحْرَم الرِّفقَ يُحْرَمِ الخيرَ» .

صادقة: الله الله . . ما أعظم هذا الحديث ! .

جرير: وقال عليه الصلاة والسلام:

«مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ، ومَنْ لا يَغْفِرْ لا يُغْفَر له» .

فصاحت صادقة:

ـ الله الله ! . ما أعظمك يا سيّدي يا رسول الله، يا معلِّمَ الناسِ الخيرَ .

جرير: استعملني معاوية بن أبي سفيان على سريَّة، فأصابنا بَرْدٌ شديد، فعدتُ بهم، وقَفَلْنا راجعين، فقال لي معاوية:

«لِمَ أقفلْتَهم؟» .

فقلت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من لا يَرْحم الناسَ لا يَرْحَمْه الله»

فقال لي معاوية: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟

قلت: نعم .

صادقة: فسكت سيِّدنا معاوية رضي الله عنه، وأقرَّك على فعلك، أليس كذلك يا جدّي؟

جرير: بلى .

صادق: ثمّ ماذا عن حديث الرسول القائد ﷺ يا سيّدي؟

جرير: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما من رجل يكون في قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي، يَقْدِرُون على أن يغيّروا عليه فلا يغيّروا، إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا».

صادقة: صدق الرسول القائد ﷺ، ونحن نرى ما نرى من الأمراض والأوجاع والفقر والزلازل وانحباس الأمطار، وشحّ الآبار.. كلُّ هذا بسبب المعاصي التي يقترفها الناس الذين ابتعدوا عن الدين، وارتكبوا المحرَّمات، فظلموا، وقتلوا، وسرقوا، ونهبوا، واغتصبوا، وفجروا، وفسقوا، وأكلوا الرِّبا، وزنوا، وفعلوا المنكرات، فسلَّط الله علينا جميعاً ألوان العذاب.

جرير: أذكر أني سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة، فقال: «اصرفْ بصرك».

صادق: كيف يكون نظر الفجأة يا سيّدي؟

جرير: تمرُّ المرأة، فيلحظها الرجل ببصره، والله عزَّ وجلَّ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩]، فإيّاك يا صادق، وإيّاكِ يا صادقة من النظر إلى المحرَّمات، فالله يأمرنا بغضّ أبصارنا، والنظرة سهم مسموم، والنظرة الأولى لك، إذا صرفتَ نظرك عنها، والثانية عليك.

صادق: سنعمل بوصيّتك يا سيّدي بعون الله.

صادقة: هنيئاً لك يا جدّي صُحْبتُك للرسول القائد عليه الصلاة والسلام.

جرير: بأبي هو وأمّي، كانت تأتيه وفود العرب، فيبعث إليّ، فألبس حُلّتي، ثم أجيء، فيباهي بي.

صادقة: عليه الصلاة والسلام.

صادق: ثمّ ماذا يا سيّدي من حديث الرسول القائد؟

جرير: عليه الصلاة والسلام، قال:

«صيامُ ثلاثة أيام من كلّ شهر، صيامُ الدهر».

صادقة: أيَّ أيام يا جدّي؟

جرير: الأيام البيض.. وهي: صبيحة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة من كل شهر.

صادق: قمري طبعاً.

جرير: وآخر ما أذكره لكم من حديث النبيّ ﷺ يوم حجّة الوداع، فقد أمرني بأن أستنصت الناس، فلمّا أنصتوا قال فيما قال:

«لا ترجعوا بعديَ كفاراً يضرب بعضُكم رقاب بعض».

صادق: يا حسـرة على العباد.. وقع ما حذَّر الرسول القائد ﷺ من وقوعه، وصار المسلمون يقتتلون في كل مكان، فالحرب مستعرة لا يكاد يخبو لها أوار يا سيّدي، وصار بأس المسلمين بينهم شديداً، فأذلَّهم الله، ولم يرعووا عن غيّهم، كأن ألوان الذُّلّ والقهر والتخلف لم تنزل بهم.. كأنّ أرضهم ليست محتلّة، وكأنّ (مسجدهم الأقصى) ليس أسيراً، وكأن نير الاستعمار والعبودية قد رُفِعَ عن أعناقهم!.

صادقة: وماذا عن علاقتك بإخوانك أصحاب الرسول القائد يا جدّي؟

جرير: عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم..

كانت طيّبة ولله الحمد.. أحبُّهم ويحبّونني، وأحترمهم ويحترمونني.

صادقة: نرغب في سماع بعض ذكرياتك معهم.

جرير: كنت مرة في سفر مع الصّحابيّ الجليل أنس بن مالك، وكنت أخدمه وهو ينهاني عن خدمته، ويقول لي: لا تفعل.

صادق: واستجبْتَ له؟

جرير: لا.. لم أستجب لطلبه.

صادق: لماذا؟

جرير: لأني قد رأيت الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ تصنع برسول الله ﷺ

شيئاً. . كانوا يتسابقون لخدمته، فآليت على نفسي ألاّ أصحب أحداً منهم إلا خَدَمْتُه.

صادق: هنيئاً لك يا سيّدي، فقد استجاب الله عزَّ وجلَّ دعوة نبيّه الكريم لك، في أن يحسِّن أخلاقك، كما حسَّنَ خلْقَك.

جرير: النبيُّ الكريم ﷺ أمرني بتحسين أخلاقي لتكون كحُسْن خَلْقي، وقد استجبتُ أنا لأمره، وكنت في سائر أحوالي أعمل بوصيّة الرسول ﷺ وأمره، ولهذا، عندما شغب الناس على سعد بن أبي وقّاص في القادسيّة، هدّأتُهم حتى هدؤوا، وعندما سألني أمير المؤمنين عمر عن سعد، قلت له رأيي فيه:

«أكرمُ الناس مقدرة

وأحسنُهم معذرة

وأقلُّهم قسوة

وهو لهم كالأمِّ البَرَّة

يجمع لهم ما تجمع الذَّرَّة

مع أنه ميمون الأثر

مرزوق الظَّفَر

أشدُّ الناس عند البأس

وأحَبُّ قريش إلى الناس».

صادقة: يا سلام!. ما أروع هذا الوصف!.

صادق: وما أصدقَه!.

جرير: فقال لي عمر:

«فأخبرني عن حال الناس؟».

قلت:

«هم كسهام الجَعْبَة، منهم القائد الرائش، ومنهم العصل الطائش، وابنُ وقّاصٍ ثِقَافُها، يغمز عصلها، ويُقِيمُ مَيْلَها، واللهُ أعلمُ بالسّرائر يا عمر»

صادقة: يا سلام يا جدّي، وإن كنت لم أفهم معنى (العصل).

جرير: العصل: الاعوجاج والالتواء.

صادق: ولكن.. هكذا كنتم تخاطبون أمير المؤمنين عمر أعظم حاكم في زمانه وفي غير زمانه؟

فتبسَّمَ جرير ضاحكاً، فأشرقت الأنوار من المُحَيَّا الجميل وقال:

ـ كانت الفُرس وكانت الروم تعظِّم ملوكها وأمراءها إلى درجة التقديس والتأليه، ولم نكن نحن المسلمين نفعل مثل ذلك.. الشعراء وحدهم كانوا يمدحون فيبجّلون ويعظّمون، فأساؤوا إلى ممدوحيهم، وأساؤوا إلى نفوسهم.

فانبرتْ صادقةُ تقول:

ـ فماذا لو سمعت شعراء بني أمية، وشعراء بني العباس، وشعراء الملوك والخلفاء والأمراء والقادة مِنْ بَعْدُ يا جدّي؟

وقلت أنا:

ـ وماذا لو سمعت شعراء زماننا، وكُتَّابه، وصَحَفيِّيه خاصةً، هؤلاء الذين يقلبون الحقائق، ويزيّفون الوقائع، ويمدحون الأبالسة، ويشيدون بأفعال الطواغيت، يزيِّنون لهم سُوْءَ أعمالهم، ويُضْفُون عليهم من الألقاب والصّفات ما لا يمكن أن تكون إلا في الأنبياء والرسل وصحابتهم الكرام.

فتمعَّرَ (تغيَّرَ) وجهُ (يوسف) وقال:

ـ هذا لا يبشّر بخير.. بل هذا نذير شؤم والعياذ بالله تعالى.

وسألتْ صادقة:

ـ هل عاملتَ القائد سعد بن أبي وقّاص حتى وصفْتَه مثل هذا الوصف

الجميل الدقيق يا جدّي؟

جرير: طبعاً عاملْتُه، وعَرَفْتُه عن كَثَبٍ (أيْ قرْب) وكنتُ على ميمنته في معركة القادسيّة.

صادق: إذن.. وصلْنا إلى مربط الفرس.. إلى الجهاد.. إلى حياتك الجهادية يا جدّي.

صادق: سوف أسمعك الشريط الذي سجّلته في السّهرة اليوم عن جهاد سيّدي جرير في اليمن، وفي العراق، والشام وغيرها.

صادقة: ولكني أريد أن أسمع من جدّي حديثاً عن جهاده، وليكن موجزاً مختصراً.

ونظرتْ صادقة إلى جدِّها تستجديه، أو كأنها تستجديه وهو الكريم، فأشرقت أنوار وجهه، ونثرَ الدُّرَرَ من فمه الذي لا أقوى على وصف جماله وكمال خِلْقته، ثم قال:

ـ أوّل عمل جهاديّ قمتُ به، عندما أمرني الرسول القائد ـ كما سمعتكم تصفون النبيَّ ﷺ ـ هو الذهاب إلى الصَّنم (ذي الخلصة) في اليمن، فذهبت إليه على رأس سريّة من المجاهدين، وخرّبْتُ بيته، وأحرقتُه حتى صار كالجمل الأجرب.

صادقة: إذن.. قاتلت تحت لواء الرسول القائد يا جدّي؟

جرير: بل قاتلتُ في سريّة بأمره عليه الصلاة والسلام.

صادقة: يعني.. كأنك قاتلت تحت لوائه الشريف.. ثم ماذا؟

جرير: وعندما ارتدت القبائل العربية عن الإسلام، وجّهني الخليفة أبو بكر رضي الله عنه إلى اليمن، لقتال المرتدين.

صادقة: هل قاتلت المرتدين مع البطل العظيم خالد بن الوليد يا جدّي؟

جرير: قاتلت تحت راية خالد في العراق، فقد سيَّرني أبو بكر إلى

العراق، لأنضمَّ إلى جيش خالد.

صادقة: متى وصلت إلى العراق يا سيّدي؟

جرير: مع فتح (الحِيْرة).. كان خالد قد فتح (الحيرة).

صادقة: إذن.. لم تَشهد أيَّ معركة قبل فتح الحيرة؟.

جرير: كيف؟ قاتلتُ في العراق قبل فتح الحيرة وبعد فتحها.. بلغْتُ الحيرة، فوجدتُ خالداً متوشحاً (أي لابساً وشاحه) قد شدَّ ثوبَه في عنقه، يصليّ وحده صلاة الفتح.

صادق: كيف هي يا سيّدي؟

جرير: صلاة الفتح ثماني ركعات متّصلات لا يسلّم فيهنّ.

ثم انصرف خالد من الصلاة، فقال:

«لقد قاتلتُ يوم (مؤتة) فانقطع في يدي تسعة أسياف، ثم صَبَرَتْ في يدي صفيحة يمانية، فما زالت معي، وما لقِيْتُ قوماً كقومٍ لقيْتُهم من أهل فارس، وما لقيتُ من فارس قوماً كأهل (أُلَّيْس)».

صادقة: يعني.. كان الفرسان أشدّاء؟

جرير: وكانت العرب تخافهم، وما جرّأ العربَ على الفرس إلا (المثنّى) البطل العظيم الذي يُشْبه (خالداً) في كثير من مزاياه العسكريّة.

صادقة: وماذا عن خالد يا جدّي؟

جرير: الحديث عن خالد يا ابنتي يستغرق ساعات وأياماً طِوالاً.

صادقة: معنى هذا، أنك تعرفه جيّداً؟!

جرير: ومَنْ مِنَ الأعداء والأصدقاء لا يعرف الكثير عن البطل الصّنديد خالد؟.

وقد كنتُ أحدَ عُمّاله الخمسة على خراج ما فُتِحَ من أرض العراق بعد الحيرة.

صادقة: كيف كنتم تعرفون أنكم قبضتم الخراج من فلان دون فلان؟

جرير: كنّا نكتب لهم براءات.

صادق: يعني إيصالات.

صادقة: وماذا كان في تلك الإيصالات أو البراءات يا جدّي؟

جرير: كنّا نكتب فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد. وقد قبضتُ الذي صالحهم عليه خالد. وخالدٌ والمسلمون لكم يدٌ على مَنْ بدَّلَ صُلْح خالد ما أقررْتم بالجزية، وكفَفْتُم. أمانُكم أمانٌ، وصُلْحُكُم صُلحٌ. نحن لكم على الوفاء»

صادقة: يا سلام! ما أجمل هذه البراءة!.

صادق: وكلُّها كانت على صورة واحدة؟

جرير: نعمْ!.

صادقة: ثمّ ماذا عن خالد يا جدّي؟

جرير: لمّا غادر خالد أرض العراق إلى الشام، تنفيذاً لأمر أبي بكر، ونجدةً لجيش المسلمين في اليرموك.. صحبني خالدٌ معه، وقاتلتُ في كلّ المعارك التي قاتل فيها ونحن في طريقنا إلى الشام.

صادقة: وشاركتَ في معركة اليرموك؟.

جرير: أجل يا ابنتي.. وقد اختارني خالد لأكون من الفدائيين المئة الذين اصطفاهم من المهاجرين والأنصار، وكان لهؤلاء الفدائيين تأثير كبير على معنويات الروم قبيل معركة اليرموك الحاسمة، وفي أثنائها.

صادقة: وبعد اليرموك؟

جرير: كلّمت أمير المؤمنين عمر ليأذن لي بجمع أفراد قبيلتي (بجيلة) لأقاتل بهم في سبيل الله، فأذنَ لي، فجمعتُهم، ثم سرتُ بهم إلى العراق، لنجدة البطل العظيم (المثَنّى بن حارثة الشيباني).

صادقة: إذن.. قاتلتَ تحت لواء المثَنّى يا جدّي؟

جرير: أجل يا بنيّتي.. قاتلنا القوات الفارسيّة الجرّارة في معركة (البويب) التي تُعَدُّ أول معركة حاسمة من معارك المسلمينَ في العراق.

صادقة: وهزمتم الفُرْسَ هزيمة منكرة؟

جرير: وتطوّعت (بجيلةُ) لمطاردة المنهزمين، وتوغَّلنا في عمق الأرض الفارسيّة، حتى بلغنا مدينة (ساباط) وصارت (المدائن) عاصمة كسرى، على مرأى منّا.

صادقة: الله أكبر!.

جرير: ولمّا انسحب المثَنّى إلى (ذي قار) كنتُ على رأس (بجيلة) نحمي قوات المسلمين المنسحبة، حتى لا تغير عليها القوات الفارسيّة.

صادقة: وماذا عن مشاركتك في معركة القادسيّة يا جدّي؟

جرير: لقد شاركتُ وقبيلتي (بجيلة) في معركة القادسية، وأيَّ مشاركة!.. فقد تحمّلتْ (بجيلة) في المعركة، في اليوم الأول..

وتفصَّدَ العرق كاللؤلؤ، وانتشر على الجبهة العريضة الوضيئة، فتحرّك الصحابيُّ القائد المجاهد في مقعده حركات توحي بالضّيق، على الرغم من الجسم العملاق الذي يمتلكه.. سكتَ هنيهةً من الزمن ثم قال:

-«كان مع الفرس ستة عشر فيلاً وجَّهوها إلى (بجيلة) ففرّقت الكتائب، وأفزعت الخيول، وكادت (بجيلة) تفنى عن بكرة أبيها، ولكن المشاة ثبتوا في مواقعهم ثبات الجبال، وتدارَكنا (سعدٌ) ببني أسد، فهاجموا الأفيال، وحُماتها هجوماً عنيفاً بقيادة البطل المغوار (طُلَيْحَةَ الأسَديّ) وتمكّنوا من

هزيمة الفيلة وحُماتها، وساعدتهم على ذلك أبطال (ربيعة) ولكن هذا كان بعد جهد جهيد.

صادق: وتركتْ (بجيلةُ) كثيراً من الشهداء في ساحة المعركة، ولكنَّ صمودها المدهش أتاح للمسلمين فرصةً اهتبلوها، وتداركوا الموقف الخطير قبل فوات الآوان.

ولمّا رأيت الارتياح في وجه الرجل العملاق، تابعتُ أقول:

ـ «وفي التاريخ ذكرٌ عريضٌ لشجاعة (بجيلة) وقائدها جرير، فقد كان لأبطالها الميامين، وشهدائها الأبرار، دورٌ مؤثّرٌ في سير أحداث القادسيّة، هذه المعركة التاريخية الفاصلة.

ونظرتْ إليَّ صادقةُ نظرة عتاب، لأنها تريد الاستماع من البطل الذي خاض غمرات المـوت دون خوف أو وَجَلٍ، فسكتُّ، وتابع القائد جرير:

ـ وفي اليوم الرابع كان لبجيلةَ صولاتٌ وجولات، حتى إذا ما خيَّمَ الظلام، وكانت ليلـة (الهرير) حملتْ بجيلـة على القوات الفارسيّة حملةً صادقة، وكان معها بعض القبائل الأخرى.. حملْنا على الفرس قبل أن يأذن لنا سعد، ولكنّ القائد الرحيم سعد بن أبي وقّاص اغتفرها لنا، وقال:

«اللهم اغفر لهم، وانصرهم.».

ثم هتفت: «وابجيلتاه!»..

كان الهجوم الكبير بعد صلاة العشاء، فاستقبلنا الليل، وقامت الحرب على قدم وساقٍ حتى الصّباح، واحتدم القتال، واجتلد المقاتلون طوال الليل لا ينطقون، كلامُهم الهرير، كأنّهم يضبحون مثل الخيل.

ـ ولذلك سُمِّيتْ ليلة الهرير يا جدّي؟

ـ نعم يا ابنتي.. كان صليل الحديد فيها كأصوات الحدّادين، أفرغ الله صبره علينا إفراغاً، وبات سعدٌ بليلة لم يبت بمثلها، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قطّ، وانقطعت الأصوات والأخبار عن رستم وسعد، فأقبل

سعدٌ على الدّعاء، حتى إذا كان وجه الصُّبْح، عرف سعدٌ أننا نحن المسلمين الأعلون، وأنّ الغلبة للمسلمين.

وقالت صادقة:

ـ قرأت في كتب التاريخ أنَّ سعداً كان يحملق طَوَال تلك الليلة، في الظلام، يحاول أن يرى شيئاً، ويُصِيْخُ السَّمْعَ، يحاول أن يسمع شيئاً، فكان أوّل شيء سمعه ليلتئذٍ، ممّا يستدلّ به على انتصار المسلمين، صوت القعقاع في النصف الثاني من الليل وهو ينشد:

نحـــن قتلْنـــا معشـــراً وزائـــدا　　أربعـــة وخمســـة وواحـــدا
نُحْسَـــبُ فـــوق اللَّبِـــد الأســـاودا　　حتـى إذا مـاتـوا دعـوتُ جـاهـدا
الله ربّي، واحترزْتُ عامدا

جرير: وصوتُ القعقاع بألف بطل.. وقد قضينا في تلك الليلة على عدد ضخم من القوات الفارسيّة المحاربة والمنهزمة.

صادق: ثمّ طاردتموهم يا سيّدي؟

جرير: إلى (ساباط) كما قلت لكم، قريباً من مدائن كسرى.

صادقة: هل شاركت في فتح (المدائن) يا جدّي؟

جرير: طبعاً شاركت أنا وقبيلتي بجيلة في فتح (المدائن) عاصمة كسرى، كما شهدت معركة (جلولاء) تحت قيادة البطل هاشم بن عتبة، ولمّا تمكّنّا من القضاء على القوات الفارسيّة فيها، ضمَّ إليَّ هاشمُ بن عتبة خيلاً كثيفة، لنكون قوة حماية ساترة في جلولاء، نفصل بين الفرس والمسلمين، وقد رأيت الفرصة سانحة للانقضاض على (خانقين) وكانت فيها فلول من القوات الفارسيّة، فقتلنا بعضهم، وفرَّ بعضهم الآخر.

وسكت القائد العملاق، فرجوته أن يتابع حديثه، فنحن عِطَاشٌ إلى مثل هذه الأحاديث، لعلها تثير فينا حميّة الجهاد، فتابع يقول:

ـ عندما وجّهنا أمير المؤمنين إلى العراق، أعطى (بجيلة) ربع

ما يغنمون، تشجيعاً لها، لأنّ (بجيلة) كانت تريد الشام والقتال فيها.

ولما انهزم الفرس في (جلولاء) وجيء بالغنائم، وكانت كثيرة جداً، استكثرها علينا سعد، فكتب إلى عمر بشأنها، فكتب إليه أمير المؤمنين:

«إن شاء جريرٌ أن يكون إنما قاتل وقومه على جُعْلٍ كجُعْل المؤلَّفة قلوبهم، فأعطوهم جُعلَهم، وإن كانوا إنما قاتلوا لله، واحتسبوا ما عنده، فهم من المسلمين، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم»

صادقة: فماذا كان موقفك يا جدّي؟

جرير: قلت: صدق أمير المؤمنين وبَرَّ. لا حاجة لنا بالرُّبُع..

ونظر القائد إلى أختي صادقة متبسّماً ثم تابع يقول:

ـ ولكنَّ امرأة واحدة من (بجيلة) اسمُها (أمُّ كُرْز) تمسَّكتْ بحقّها وقالت: «إنّ أبي هَلَكَ (مات) وسَهْمُه ثابتٌ في السَّوَاد (أي أرض العراق) وإني لن أسلم».

صادقة: فماذا كان موقف سعد يا جدّي؟

جرير: بل قولي: ماذا كان موقف أمير المؤمنين منها؟.

قال لها عمر:

«يا أمَّ كُرْز. إنّ قومك قد أجابوا».

قالت:

«ما أنا بمسلمة، أو تحملني على ناقة ذلول، عليها قطيفة حمراء، وتملأ يديّ ذهباً»

صادقة: فاستجاب أمير المؤمنين لطلبها؟

جرير: نعمْ.. واسترضاها.

فصحتُ إعجاباً بعدل أمير المؤمنين عمر:

ـ الله أكبر!. الله أكبر!. هكذا يكون الحاكم المسلم.. هكذا يكون العدل.

وطلبت صادقة من جدّها العظيم أن يستمرّ في حديثه، فتابع يقول:

ـ وأمدَّني سعدٌ بثلاثة آلاف مجاهد، وأمرني أن أسير لفتح (حلوان)

صادق: التي في مصر؟

جرير: بل التي في العراق.. فتوجّهتُ نحوها، فلمّا صرتُ قريباً منها، هرب كسرى الفرس (يزدجرد) منها متوجّهاً إلى (أصبهان).

صادق: إذن.. كان ملك الفرس في (حلوان).

جرير: أجل.. جعلها مقراً له بعد هربه من عاصمة ملكه (المدائن).

صادق: ولماذا يهرب؟ ألا يريد الدفاع عن مُلكه ومُلك آبائه وأجداده؟ أم أنه..

جرير: هرب لأن أخبار هزائم جيوشه قد بلغتْه.. هزائم جيوشه في (جلولاء) وسقوط (خانقين) ومقتل قائده (مهران) في (البُوَيب).. بلغته أنباء تلك الهزائم وهو في حلوان، فأدرك أن المسلمين في الطريق إليه، فخرج من حلوان سائراً في الجبال نحو الرّيّ شمالاً، وترك في حلوان حامية وقوّة عسكرية بقيادة قائده (خسروشنوم) لتعوق تقدُّم المسلمين.

صادق: ملك فاشل، وقيادة محكوم عليها بالموت.

جرير: وقد تمكّنتُ من فتح حلوان صُلحاً.. أمَّنتُهم على دمائهم، ولمن أراد الخروج منها فليخرج آمناً.

صادقة: أين (قادة) اليوم منكم، وأين أخلاقهم المنحطّة من أخلاقكم السامية..

إنهم يفعلون اليوم بالمسلمين أخسَّ الأفاعيل.. في أفغانستان.. في البوسنة والهرسك.. في الشيشان.. في آذربيجان.. في فلسطين.. في كلّ مكان عربي أو مسلم يصلون إليه، وينتصرون على العرب والمسلمين.

صادق: نعمْ يا سيِّدي.

جرير: استبقاني القائد هاشمُ بنُ عتبة في حلوان، ثم إني مضيتُ إلى (دِيْنَـوَر) وحاصرْتُها، ولكني لم أتمكن من فتحها، فتركتُها وتوجّهتُ إلى (قرماسين) وفتحتُها صُلحاً.. على مثل صُلح حلوان.

صادقة: وبقيتَ والياً على حلوان؟

جريـر: إلى أن جاءني أمـرُ عمار بن ياسـر بأن أتحرك بقواتـي إلى (خوزستان) حيث قواتُ أبي موسى الأشعري، فتحرّكتُ إلى هناك.

صادق: وسعد؟ أين القائد سعد؟

فتأوه القائد جرير، وصَعَّدَ حسرةً محرقة ثم أجاب:

ـ لقد عزله عمر، وولَّى عمار بن ياسر.

ـ عزل سعداً؟ لماذا؟

جريـر: لأنّ الأوباش تحرّكوا ضدَّ سـعدٍ، واتّهموه اتّهامات كاذبـة ظالمة، واستجاب أمير المؤمنين لطلبهم، فعزل سعداً وهو يعلم أنّ سعداً بريء من كلّ الاتهامات التي وجَّهَها الأوباش إليه.

صادقة: لماذا؟

جرير: حتى لا تكون فتنة.

صادقة: يا حسرةً على العباد.. وهل عمّارٌ أهلٌ لقيادة العراق وبلاد الفرس، وقيادة جيوش الفتح يا جدّي؟

فأجاب جرير السيِّد المهذَّب في امتعاض:

ـ ممّا حفظه الناس عني، قولي:

«الخَرَسُ خيرٌ من الخلابة

والبَكَمُ خيرٌ من البَذاء».

فقلت:

ـ كما قال عنك أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :

«نِعْمَ السيِّدُ كنتَ في الجاهليّة

ونِعْمَ السيد أنت في الإسلام» .

جرير : ولذلك كنت أصمت ، حتى سألني أمير المؤمنين عن سعد ، وقد ذكرتُ لكم قولي في سعد رضي الله عنه وأرضاه . كما كنتُ سبباً في عزل عمار عن الكوفة .

صادقة : لماذا؟

جرير : لأنه غير أهل لها . . لا علم له بالسياسة ، وليست لديه كفاية . . غير كفء .

أقول قولي هذا وأستغفر الله .

صادق : لا بدَّ أنّ عمّاراً غضب لعزله .

جرير : لا . . لم يغضب ، بل قال :

«ما سرَّني حين استُعْملتُ ، ولقد ساءني حين عُزلتُ»

واكتفى بهذا ، فقال له عمر :

«قد علمتُ ما أنت بصاحب عمل ، ولكنّي تأوّلتُ قول الله تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

وسكتَ عمّار .

صادقة : ما معنى (تأوّلتُ) يا جدّي؟

جرير : ظنَّ أمير المؤمنين أنّ الله عزَّ وجلَّ يريد مثل عمار بن ياسر أن يكون والياً ، وهو الضعيف الذي كان عبداً مستضعفاً .

صادق : هل أثقلْنا عليك يا سيّدي؟ لكأني أراك تقاتل وأنت تتحدّث عن القتال .

جرير: هذا لأنّ حديث الجهاد والاستشهاد، والفتح والنّصر، والطِّراد والمبارزة والحصار والنجدات.. الحديث عن هذه يثيرني ويهزّني هزّاً، فلا عليكم إذا رأيتموني أنفعل وأنا أتحدّث عنها.

صادق: بـارك الله فيك يا سيّدي، ولسـت أدري بأيّ وجه نقابل ربَّنا غداً؟

وبأيٍّ لسان نجيبه إذا سألنا:

هل أنتم مسلمون؟

وإذا كنّا مسلمين، فهل نحن من حَفَدَتِكم؟

وإذا كنّا من حفدتكم، ولم نكن هُجَناء، فلماذا فرّطنا بالأرض التي سقيتموها من دمائكم؟

صادقة: احتلال فلسطين، وتهويد القدس، وأَسْرُ المسجد الأقصى: جراحٌ ناغرة يا جدّي المجاهد، لا تكاد تندمل، حتى ينكأها حديث الفتوح والأمجاد.

فتحرك القائد العملاق حركة نشطة ثم قال:

«لا يـا أولادي.. لا.. لا يجـوز أن تغيب أيُّ أرض مغتصبة عن عقولكم لحظة واحدة، فكيف إذا كانت تلك الأرض فلسطين؟

لا.. عيشوا مأساتها لحظة لحظة.. وحَذَارِ حَذَارِ أن تكتفوا بالقول وتتركوا العمل.

صادق: ولذلك نُثْقِل عليكم بأسئلتنا، لنتعلم منكم، ونقتدي بكم.

جرير: إذن.. لنعدْ إلى حديث الجهاد والاستشهاد.

صادق: إذا أحببتَ يا سيّدي أن تحدّثنا عن دورك في معركة (نهاوند).

جرير: معركة نهاوند أو فتح الفتوح.. قاتلْنا فيها قتالاً مريراً تحت راية القائد العظيم: النُّعمان بن مقرّن الذي وجَّهه أمير المؤمنين عمر إلى (نهاوند) وقال له:

«إنْ أُصِبْتَ فالأمير حذيفة بن اليمان، فإن أُصيبَ حذيفة، فالأمير جرير بن عبد الله البجلي».

صادق: هذا يـدلّ على المكانة الكبيرة التي كنتَ تحتلُّهـا عند أميـر المؤمنين يا سيّدي.

صادقة: رضي الله عنه وأرضاه.. كان يعرف رجاله معرفة دقيقة، وكان يحيط بالمعارك، ويخطط لها، وهو على بُعْد مئات الأميال عنها.

جرير: إذن.. كنتُ في جند (نهاوند) وشاركتُ في بناء فسطاط أميرنا النعمان بن مقرّن، رضي الله عنه وأرضاه شهيداً في علّيّين.

صادق: كم كان جيش الفرس يا سيّدي؟

جرير: مئة وخمسين ألفاً.

صادق: وفي القادسيّة؟

جرير: كانوا مئة وعشرين ألفاً.

صادق: إذن.. كانت قوات الفرس في (نهاوند) أكثر من قواتهم في القادسيّة.

جرير: نعمْ.

صادقة: وكم كان عددكم يا جدّي؟

جرير: كنا ثلاثين ألفاً.

صادقة: يعني كانوا خمسة أضعافكم.

جرير: وقد نصرنا الله عليهم نصراً مؤزّراً.. قتلنا منهم في المعارك ثلاثين ألفاً، سوى من قتلناهم في المطاردة.. ونحن نطاردهم. أمّا الذين قُتلوا في (اللَّهْب) الذي هَوَوْا فيه، فمئة ألف.

صادقة: الله أكبر.. وحُقّ للمؤرخين ولمن شهدها أن يسمّيها (فتح الفتوح).

جرير: كانت من المعارك التاريخيّة الفاصلة.. الحاسمة..

صادق: هل من ذكرى معيّنة تذكرها لنا عن (فتح الفتوح) يا سيّدي؟

فتبسَّم الصحابيُّ الجليل وقال كالمحدِّث نفسه:

«إنّ لله جنوداً من عسل».

فتساءلنا ـ أنا وصادقة ـ عن معنى هذا المثل الذي نسمع به ولا نعرف قصّته، فازدادت ابتسامته عذوبة ثم قال:

ـ بعد انهيار الجيش الفارسيّ في (نهاوند) انقضّ أبطالنا المغاوير على فلول المنهزمين، يطاردونهم، ويقتلون منهم، وانطلق القعقاع، البطل الذي لا يُشَقُّ له غبار، في أثر (فيرزان) القائد الفارسيّ المهزوم، حتى وصل إلى (ثنية همذان)، وتصادف أن كانت الثنيّة مشحونة بقافلة من البغال والحمير، محمَّلة بالعسل، فحبستْ (فيرزان) عن المرور بجواده الذي كان يطير به، فلمّا رأى (فيرزان) القعقاعَ في أثره، نزل عن حصانه، وركض متسلِّقاً الجبل، لعله ينجو من القعقاع، ولكنّ القعقاع نزل عن جواده أيضاً، وأسرع نحوه، حتى أدركه فقتله، وبذلك سُميِّت الثنيّةُ ثنيّةَ العسل، وقال المسلمون متفكِّهين:

صادقة: إنّ لله جنوداً من عسل.

صادق: ثم ماذا يا سيّدي؟

جرير: وأرسلني أمير الكوفة: المغيرة بن شُعْبة إلى همذان التي تُعَدُّ من أكبر المدن الفارسيّة وأقدمها، فقاتلتُ أهلها، وأصيبت عيني هذه بسهم، فقلت:

«احتسبتُها عند الله الذي زَيَّنَ بها وجهي، ونوَّرَ لي ما شاء، ثمَّ سَلَبنيها في سبيله».

صادقة: في سبيل الله كلّ ما لقيتم يا جدّي.

جرير: ثمّ فتحْتُها على مثل صُلح (نهاوند) وغَلَبْتُ على أرضها قَسْراً.

صادقة: في أي سنة كان ذلك يا جدّي؟

جرير: سنة ثلاث وعشرين.

صادقة: وماذا عن المُغيرة بن شعبة يا جدّي؟

جرير: كان مجاهداً، وكان من دُهاة السياسيّين، وكان قائداً محنّكاً، اتّهمه خصومه اتهامات باطلة، كما اتّهموا سعداً خال رسول الله ﷺ. تصوّروا.. اتّهموا سعد بن أبي وقّاص بالجبن، وبأنه وضع الحرّاس على بابه يمنعون المظلومين من مقابلته، بل بلغ منهم اللؤم وقلّة العقل والدِّين، أن يتّهموا سعداً بأنه لا يجيد الصلاة.

صادق: ألا لعنة الله على الظالمين.

جرير: ولذا.. عندما توفّي المغيرة، قمتُ فحمدتُ الله عزَّ وجلَّ، وأثنيت عليه، وقلت لمن حضر من المسلمين:

«عليكم باتقاء الله وحده لا شريك له، وبالوَقَار والسَّكينة حتى يأتيكم أمير، فإنما يأتيكم الآن».

ثم قلت:

«استعفوا لأميركم، فإنه كان يحبُّ العفو. وربِّ هذا المسجد، إني لناصحٌ لكم»

ثم استغفرتُ ونزلْت.

صادقة: هنيئاً لك يا جدّي هذا الخلق وهذا الوفاء.

صادق: هل كانت صلتك بالخليفة الراشد عثمان بن عفّان جيّدة يا سيّدي؟

فتبسّم الرجل الوسيم وقال:

ـ وهل هذا سؤالٌ يُسأل يا بنيّ؟

أم أنك متأثر بأقوال الكذّابين البَهّاتين المفترين الذين ظلموا صهر رسول الله ﷺ في حياته، وظلموه بعد استشهاده!

عثمان ذو النورين ـ يا أولادي ـ كان فوق الشبهات.. كانت الملائكة تستحيي منه.. كان خليفة ومن أعظم الخلفاء.. وقد ولاّني على (قَرْقيسيا) سنة أربع وثلاثين، وعندما خرج عليه أوباش الناس وخَطَبَنا أبو موسى، وأمرنا بلزوم الجماعة، وطاعة عثمان، كنتُ فيمن أجابه إلى ذلك، وقلنا له: صلِّ بنا.

قال أبو موسى: لا.. إلا على السمع والطاعة لعثمان.

قلنا: نعمْ.

فصلَّى بنا.

أحسستُ بالتّعب، وتذكّرتُ أني لم أحضِّرْ كلَّ واجباتي المدرسيّة، ولكنّي كنت أرغب في الاستمرار مع سيِّدي جرير بن عبد الله البجلي.. كنت في صراع بين رغبتين، ثم وجدتُني أقول له:

ـ أرى أن نكتفي بهذا القدر يا سيِّدي المجاهد، فقد أتعبناك، كما أنّ أعصابنا لم تعد تحتمل، وهي تقارن بين الأمس واليوم، فادعُ اللهَ لنا يا سيِّدي، أن نكون مجاهدين حقاً وصدقاً.

فقال الصحابيُّ الجليل:

ـ قولوا معي يا أولادي:

نَوَيْنا الجهاد في سبيل الله.

فقلنا:

ـ نَوَيْنا الجهاد في سبيل الله.

قال:

ـ نَوَيْنا الشهادة في سبيل الله .

قلنا :

ـ نَوَيْنا الشهادة في سبيل الله .

ثم قال جرير بن عبد الله :

ـ لا تحزنوا يا أولادي، وتذكّروا أنّ جدّكم الذي يحدّثكم، ما كان يثبتُ على صَهْوَة حصانه، ثمّ غدا مجاهداً في سبيل الله .

* * *

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ السيرة النبوية ، لابن هشام .

٣ ـ العواصم من العواصم ، لابن العربي .

٤ ـ فضائل الصحابة ، لأحمد بن حنبل .

٥ ـ زاد المعاد ، لابن القيّم .

٦ ـ الكامل في التاريخ ، لابن الأثير .

٧ ـ حياة الصحابة ، للكاندهلوي .

٨ ـ سير أعلام النبلاء ، للذهبي .

٩ ـ المسند الجامع .

١٠ ـ طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام ، تحقيق محمود شاكر .

١١ ـ قادة فتح العراق والجزيرة ، لمحمود شيت خطاب .

١٢ ـ القادسيّة ، لأحمد عادل كمال .

١٣ ـ الطريق إلى المدائن ، لأحمد عادل كمال .

١٤ ـ سقوط المدائن ، لأحمد عادل كمال .

١٥ ـ الأعلام ، لخير الدين الزركلي .

* * *